

التركمان و مصر في عصر برسباى^(١)

٨٢٥هـ / ٨٤١ هـ - / ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م

أ.د. عبد الرازق الطنطاوى القرموط

رئيس قسم التاريخ والحضارة

يعتبر برسباى من أقدر سلاطين المماليك الذين حكموا مصر. فقد تولى السلطنة في الثامن من ربيع الآخر سنة ٨٢٥ / ١٤٢٢ هـ ولقب بالملك الأشرف ، وكفى بابى النصر وقد أخذ نجمه في الصعود، وأحوال مصر تستقر بعد قضائه على حركات تغرى بردى وطرباى وجانبك الصوفي ، واستخدم حنكته السياسية مع طالبي النفقة من المماليك فور توليه ، فلم تحدث منهم اضطرابات.^(٢)

ويعتبر عصر برسباى هادئا بالنسبة لما قبله وما بعده : فضلا عما امتاز به من أهمية خاصة في التاريخ المصري حربيا وتجاريا ، فقد استطاع ضم جزيرة قبرص إلى أملاك الدولة المصرية: وهى الإضافة الوحيدة التي

(١) لفهم الأوضاع السائدة في عصرنا بالعراق وغيره . وأن تعدد الكيانات العرقية مثيرا للمشاكل ، وتحتاج إلى سياسة خاصة . وتعامل متنوع كان هذا البحث لوجود هذه الجماعات حتى وقتنا .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١٤ ص ٣٣٢ .

تمت في عصر السلاطين المماليك ، وهى شهادة على قوة الدولة ونفوذها في عصره.

ولم يعكر صفو أيامه الطويلة _ ١٧ سنة تقريبا _ سوى فرار جانبك الصوفي من سجن الإسكندرية . قد كانت له بصمات طيبة في بداية حكمه ، وأدخلت محبته في قلوب الرعية ، فقد منع الناس كافة من تقبيل الأرض بين يديه ، فامتنعوا عن ذلك ^(١). كما أمر بإبطال القدر الذي كان يأخذه ممن يسافر بالأمير المنفصل عن أمرته إذا حبس أو نفى ^(٢)، وكذلك المنادة بعدم استخدام أحد من أهل الذمة في دواوين السلطان والأمراء ^(٣) وإطلاق سراح أولاد الأسياد وأولاد السلاطين السابقين من محبسهم في القلعة ، والسماح لهم بسكنى القاهرة ، فقد كانت العادة السائدة في هذا العصر الحبس لهم خوفا من طريان أمر أو المشاركة في الثورات . كما انه استطاع أن يحكم بثقه واطمئنان لقوة أنصاره ، وضعف أعدائه ونتيجة لذلك عمت السكينة أرجاء الدولة خلال العام والنصف الأول من سلطنته حتى حدثت ضجة هروب جانبك الصوفي . التي اربكته مؤقتا . وكان لها اثرها في سياسته حيث عزل سودون من عبد الرحمن عن نيابة دمشق بعد ثمانى سنوات ^(٤) خوفا من

(١) عقد الجمان : ج ١٩ ل ١٧٩ أ ، نزهة النفوس ج ٣ ص ٦

(٢) أبناء الغمر ج ٣ ص ١٧٠ .

(٣) السلوك ج ٤ ص ٦١٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٤٨ .

(٤) نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٣٣ .

طول هذه النيابة . كما بقي القبض على تغرى بردى المحمودى فاتح قبرص بعد لعبه الكرة معه، ثم أرسله إلى الإسكندرية للحبس بها .
ولذلك أثر من أثار هروب جانبك الذي لم يستحق كل هذا التوجس الذي لازمه - وان لم يعطل سياسته - حتى سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م ، حيث ظهر جانبك بآسيا الصغرى ، وان أزعجه ظهوره لمعاضدة شاه رخ له ، والذي كانت علاقته مع سلطان مصر سيئة^(١) بسبب إصرار الأول على كسوة الكعبة المشرفة ورفض برسباى تحقيق أمله . وقد قتل جانبك . وقدمت رأسه إلى مصر فأقيمت الزينات لذلك ، ثم علق الراس بعد طوافها في شوارع القاهرة على باب زويلة .

• ومع ذلك كله فقد كانت له سياسة خارجية ناجحة مع العديد من دول الصداقة . وان كان له موقف متشدد من أعداء دولته جعلت مكانة مصر متميز عالميا . وسوف نوضح علاقته بالإمارات التركمانية .

الإمارات التركمانية :

كانت إمارات التركمان تقيم على حدود دولة المماليك في جنوب شرق آسيا الصغرى ، ومنطقة الجزيرة الفراتية ومنطقة الثغور .

• ولما كانت بلاد الشام تعتبر امتدادا طبيعيا لمصر في تلك الفترة ، كما كانت تعتبر منطقة دفاع متقدمة عنها ، وهى كذلك تكمل الدور التجاري العالمي لمصر ، لذلك نالت اهتماما كبيرا من سلاطين المماليك .

وكانت أهم إمارات التركمان ذات الصلة بالمماليك صداقة أو عدااء هي:

١ . إمارة ذي الغادر : التي قامت أساسا في نواحي البستان ومرعش ثم امتدت في بعض الأحيان إلى ديار بكر مثل خرتبوت و بهسنى وأمد والرها بجانب ملطية و كختا و كركر وأبلستين وقلعة الروم ودارنده .

٢ . إمارة بنى رمضان : وتقع في الجنوب الشرقى لآسيا الصغرى ، و شملت منطقة أطنة و سيس و يياس و طرسوس و غيرها ،

٣ . إمارة بنى قرمان : و كانت تشمل منطقة لارنده و سيواس و قونية و قرمان و دار بساك و غيرها .

٤ . قرة قونلى أو الشاة السوداء : وكانت تقيم في نواحي ارزنكان و سيواس وبعض أرمينية وبعض اذربيجان .

٥ . آق قونلى أو الشاة البيضاء : الذين استقروا هـى بعض ديار بكر ، ثم توسعوا حتى ضموا آمد وماردين و أرزن (ارزنجان) والرها وغيرها .

* والجدير بالذكر أن هذه المناطق لم تكن ثابتة ومستقرة دائما ، بل كانت تطرأ عليها التغيرات نتيجة الحروب المستمرة بين هذه القبائل ، وتدخل الدول المجاورة كالمماليك و المغول والعثمانيين في شئونهم .

كما أن ولاءهم لم يكن ثابتا في الغالب متقلبا كذلك حسب الظروف والحروب و التطورات ، ولذلك كان يطلق على الموالين لحكومة مصر تركمان الطاعة، ولهم إقطاعات وامتيازات ، أما الآخرون فكان العداء ، وكانت الحملات المتكررة إما لتهديدهم المدن و هجومهم عليها ، أو لتوسعاتهم في تلك المناطق المتاخمة لحدود المملكة المصرية .

• وسوف نلقى الضوء على علاقة تلك الممالك بالحكومة المصرية حسب تأثيرها على سير الأحداث ، واهتمام برسباى بها.

آق قونيللى أو الشاة البيضاء :

وأول زعيم لهذه الإمارة هو علاء الدين طور على بك ، ثم ابنه فخر الدين قطلوبك ، ثم عثمان قرا أيلوك . الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة ، وقد ساعده على ذلك موقفه من تيمورلنك ، وزخفه على بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٢ م ، فقد انضم إليه ، لذلك جعله تيمورلنك طليعة له في الهجوم و وكافأه بتثيبته على ديار بكر فأصبح حليفا قويا ومستمرا للمغول أو بخاصة

مع شاه رخ ، وبالتالي كان على عداء سافر مع المصريين وكثيرا ما وقعت منه بعض المناوشات.

ففي سنة ٨٠٩ هـ عندما تسلطن جكم بحلب ، خرج عليه قرا أيلوك و قتله ، ولما آل الأمر إلي المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م ، سار إليه من مصر بنفسه سنة ٨١٨ هـ — ١٤١٥ م ثم سنة ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م كما ارسل ابنه إبراهيم إلي تلك المناطق سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م . وقد أحدثت هذه الحملات بلا شك التخريب و التدمير بمناطق التركمان . وكانت أعمالهم العدائية تهدأ أحيانا ، فقد مالا قرا أيلوك المؤيد شيخ حينما ثار ضده قرا يوسف ، ولكن بعد موت المؤيد وقرا يوسف ، عاد قرا أيلوك وهدد حدود الدولة ، حتى إن الأمير برسباى والى طرابلس قد اشتبك معه في معركة انتصر فيها قرا أيلوك ، وكانت نتيجتها وضع برسباى السلطان الذي نتحدث عنه — في سجن قلعة المرقب.

• لما وصل برسباى إلي سلطنة مصر كما ذكرت ، كان لابد من أخذ ثأره من عثمان قرا أيلوك ، و بخاصة و قد أصبح صاحب الأمر و النهى ، والقوة الرادعة ، وقد دفعه عثمان بتصرفاته غير المنضبطة لسلوك هذا الطريق العدائى السافر بينهما فقد كان يأوى الأمراء المناوئين للسلطان المصرى الخارجين عن طاعته . ولنبد بالوقوف على سير هذه

العلاقات، في ربيع الآخر سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٥ م ، قدمت
 رسل من عند قرا أيلوك التركمانى^(١) . ولم تحدد المصادر
 الهدف منها أو ما تحمله من مكاتبات ، وإن كانت استطلاعية
 وبخاصة وبرسبای وقتها كان منشغلا بأمر قبرص كما هو
 معروف .

• كما استغل قرا أيلوك الخلاف الذي وقع بين التركمان من بنى
 قرمان و غيرهم سنة ٨٣٠ هـ ١٤٢٧ م في زعزعة
 الوضع ، وبخاصة وأن العلاقة بين حليفه شاه رخ و برسبای
 لم تكن على وفاق .

حملة تأديبية :

لما كثر فساد قرا أيلوك في بلاد ملطية و غيرها من البلاد التابعة
 لسلطان مصر ، كان لابد من تجهيز حملة تأديبية إليه للمحافظة على مكانة
 الدولة وحدودها ، ففرق برسبای نفقات السفر على أربعة أمراء من

(١) عقد الجمان (تحقيق د / عبد الرازق القرموط) ص ٢٥٦ ط الزهراء للأعلام العربي ،

المقدمين عينهم للسفر^(١) . وأعطى لكل واحد منهم ألفى دينار كما أعطى لكل واحد من أمراء العشرات مائتي دينار ، ولكل مملوك خمسين دينارا^(٢) . ثم فرق عليهم الجمال و الخيام . ونزلوا في ميدان الريدانية استعدادا للسفر في هذه الحملة المهمة التي كان هدفها استعادة البلاد التي استولى عليها قرا ايلوك . والذي أثار حمية السلطان إليها أن نائب خر تربت استمر لمدة سنة يطلب النجدة لطرد عسكر قرا ايلوك^(٣) ، ولكن لم تصله النجدة حتى مات ، وملكها قرا أيلوك.

● وصلت الحملة إلى حلب في شوال سنة ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م وتوجهت إلى مدينة الرها التي حصنها هاييل بن قرا أيلوك ، و حصن قلعتها ، واستعد لملاقاة الجيش المصرى ، حيث جمع الكثير من أهل السواد بها ، بجانب التركمان الرماة الشجعان البالغ عددهم ستمائة مقاتل .

اقترب الطرفان ، ونشب القتال بعد أن حاصرت القوات المصرية والشامية المدينة ، حيث القوا عليها الكثير من السهام والنشاب

(١) هم اركماس الظاهرى الدوادار الكبير ، وقرقماس حاجب الحجاب ، وتغرى برمش ، ويشبك شاد الشراب خاناة . عقد الجمان ص ٣٦٠ ط الزهراء .

(٢) كان عدد الممايك السلطانية ٣٩٠ مملوكا . وبلغت نفقة الجميع نحو ثلاثين الف دينار .

النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٦٤ .

(٣) عقد الجمان ص ٣٦٠ ط الزهراء

والحجارة لمنعهم من دخولها فتراجع العسكر إلى خيامهم مؤقتا وبعد الظهر عادوا إلى المدينة وعرضوا الأمان على أهلها فلما لم يجدوا استجابة قاتلوهم بشدة حتى استطاعوا دخول المدينة وانتشروا في أرجائها يخربون ويدمرون ويأسرون حتى خرجوا عن الحد كما يقول ابن تغرى بردى^(١) ثم في صباح اليوم التالي _ السبت ٢١ شوال ٨٣٢ هـ _ توجهوا لمحاصرة القلعة التي تحصن بها أعيان البلد ومقاتلتها ، فعرضوا عليهم الأمان فرفضوا ، فبدأ التراشق والرمى بالسهم والحجارة والنشاب ، فنصب المصريون المكاحل والمدافع صوب القلعة ، وشرعوا في نقب الأسوار ، واستمر ذلك حتى ضحى يوم الأحد فدب الرعب في قلوب من بالقلعة ، فطلبوا الأمان وتراسلوا في هذا لأمر حتى تم الاتفاق على عدم إيذائهم ، ولا يقتلوهم . و قد نزل هايل و معه تسعة من اعيان الأمراء حيث تسلمه أركماس الظاهري ، ثم ركب سودون من عبد الرحمن _ نائب دمشق _ و معه بقية النواب لتسلم القلعة ، فوجدوا المماليك على أبوابها مصرين على اقتحمها ، رافضين لما توصل إليه قادتهم ، و هجموا على القلعة بالفعل و احرقوا و نهبوا ، وقتلوا وأسروا ، و خربوا بطريقة غير مقبولة ، جعلت تقي الدين المقریزی المؤرخ ينتقد

بشدة هذا التصرف ، و يحمل برسباى المسئولة فيه^(١) . ولكن رد عليه ابن تغرى بردى بأن ما وقع لم يأمر السلطان به ، ولا وقع عن إرادته ، كما ان النواب منعوهم فلم يقدرُوا على ذلك ، فلا ضير على برسباى من تجهيز الحملة لردع المنشقين المفسدين ، فهذا دأب الملوك السابقين ، وما حدث لا يتحمل برسباى مسئوليته^(٢) .

وبعد الانتهاء من تخريب قلعة الرها دخلت القوات المصرية متوجهة إلى البيرة حيث أمر السلطان بإقامة قرقماس بها ، وإقامة تغرى بردى في قلعة الروم ، واركماس ويشبك في حلب ، وأن يعود النواب إلى ولاياتهم ، ولكن مع اليقظة والاستعداد لأى طارئ إذا ما تطور الموقف ونشب القتال واحتاجت إليهم القوات المصرية انضموا إليهم^(٣) .

• وهذا التصرف من برسباى يدل على حسن سياسته و بصره بالأمر وأنه قد وضع خطته لاستقرار الأمور في هذه المنطقة المضطربة ، وتوجيه النواب للاستعداد لتنفيذها عند الطلب . وهكذا تكون القيادة لتحقيق قوة الدولة ، وبسط النفوذ والسلطان بقوة القانون ، و قانون القوة الذي يسود في أى عصر

(١) راجع الأحداث وموقف المقرئى منها في السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٠٦ - ٨٠٩ ،

عقد الجمان ص ٣٦٢ ط الزهراء

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٦٧

(٣) عقد الجمان ص ٣٦٣ ط الزهراء

. وقد ابقى برسباى القوات المصرية في ، حلب لمدة خوفا من ان يهاجمها قرا أيلوك.

وقد أرسل المصريون الأمير هايبيل و خمسة عشر نفرا إلى مصر بعد انتهاء موقعة الرها فوصلوها في الخامس والعشرين من ذى الحجة ، ودخلوها من باب النصر أحد أبواب القاهرة حيث شق الموكب طريقة في المدينة ، وهم في أسوأ الأحوال ، ومشهورين ينادى عليهم ، حتى وصلوا القلعة وتمثلوا بين يدي السلطان فأمر بحبسهم في برج القلعة^(١) .

• وأمام هذا النصر الذي حققته الحملة ، واستعادتها البلاد التي أخذها هايبيل من الأملاك المصرية مثل خرتبرت وغيرها ، ولم يفكر عثمان قرا أيلوك في حرب الممالك في هذا الوقت ، وأرسل إلى السلطان برسباى رسالة في جمادى الأولى سنة ٨٣٣هـ / ١٤٢٩ م يعرض الصلح ، ويسأل الصدقات الشريفة العفو عن ولده هايبيل واطلاق سراحه^(٢) .

وقد رفض برسباى هذه المطالب نكايه في قرا أيلوك و إحساسه بنشوة النصر التي ثار بتلك الحملة لهزيمته السابقة.

١- عقد الجمان ص ٣٦٣ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨١٠ ، النجوم

الزاهرة ج ١٤ ص ١٦٨

٢- نزهة النفوس ج ٣ ص ١١٨٤ ، عقد الجمان ص ٣٧٤ ط الزهراء ، النجوم

الزاهرة ج ١٤ ص ١٧٢ .

فساد وإفساد :

لقد ظل هايل بمصر حتى مات في الطاعون سنة ٨٣٣ هـ وهو بسجن القلعة في الثالث عشر من رجب منها^(١) . فكان رد فعل أبيه عثمان عنيفا لرفض برسباى إطلاق سراح ابنه ثم موته سجينا غريبا . ولذلك قام بهجوم كبير و فساد عظيم في بلاد السلطان ، فقد أغار على ملطية و ماردين و حلب ، حتى وصل إلي عنتاب ، ونهبها ، وعاث فسادا في هذه المنطقة ، و اعترض طريق القوافل التجارية بتلك الجهات وزاد من خطورة تصرفاته عودة القوات المصرية من حلب و كذلك مساندة شاه رخ له^(٢) ، نكاية في برسباى الذي لم تكن علاقته به طيبة بسبب كسوة الكعبة المشرفة التي أشرنا إليها .

لذلك لما وصلت هذه الأخبار إلي مصر أصدر برسباى أوامره إلي جار قطلو اتابك العساكر ، وأقبغا التمرازى ، وتمرأز رأس نوبة ، وقرا مراد خجا المقدمين بالتجهز للسفر إلي حلب و إلي ملطية^(٣) و أضاف إليهم عاة امراء طبلخانات و عشرات و ممالك . وقد انفق على الجميع نفقة السفر فاستعدوا و خرجوا إلي ميدان الريدانية للتحرك نحو حلب ،

١- أنباء الغمر ج ٣ ص ٤٥٢ ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٤٨ .

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٧٨ . أنباء الغمر ج ٣ ص ٤٥٨ .

٣- كان والي ملطية الأمير قباى بملوان قد طلب النجدة لمحاصرة قرايلوك .

وقد وصلت الأنباء إلي برسباى بعودة قرا أيلوك إلي بلاده ، بعد ان تصدت له القوات الحلبية بقيادة قصروه نائبه بها وقوات دمشق التي ارسلها سودون من عبد الرحمن ، فخافها قرا أيلوك ، وعاد إلي بلاده ، كما أخبروه أن المصلحة تقتضي عدم ارسال الحملة في هذه السنة لذلك استرد السلطان النفقة من المجردين للحملة بعد أن عادوا من سرياقوس^(١) ، أو من عكرشه التابعة الآن لشبين القناطر .

• ويبدو ان السلطان لم يرتح لموقف قرا أيلوك ، فقد استعد السلطان في ربيع الأول سنة ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م للسفر إلي البلاد الشامية لمحاربة قرا أيلوك ، وأخذ الأمراء في الاستعداد للسفر للمرة الثانية ، ولكن انتهت هذه السنة و لم يسافر السلطان ولا أحد من أمرائه إلي البلاد الشامية . وفي رجب سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م رسم السلطان بأبطال حركة السفر ، فتكلم الناس أن ذلك كان بسبب إشاعة تمرد الأمير سودون من عبد الرحمن ، وليس من أجل قرا أيلوك^(٢) .

• وقد استمر فساد هذا التركمانى في المناطق التابعة لسلطان مصر حتى سنة ٨٣٥ هـ ، فقد استطاع الأمير ناصر الدين أمير

١- عقد الجمان ص ٤٠٠ - ٤٠٢ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٥٠ ،

النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٨٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٨٧ - ١٩١

ماردين الخاضعة لمصر ان يأسر الأمير حمزة بن قرا أيلوك ، صاحب آمد ، وسجنه كرد فعل لتصرفات وهجمات قرا أيلوك وفساده ، الا ان هذ الامر لم يستمر طويلا فقد تحرك قرا أيلوك نحو ماردين وحاصرها مدة ، ثم انتصر على اميرها التابع لمصر و عين ابنه حمزة عليها . فلما وصلت هذه الأنباء إلي السلطان صمم على الخروج بنفسه على رأس حملة تأديبية لتأديب قرا أيلوك والحد من فسادة ، وتجهز لذلك واخذ الأمراء في التجهز والاستعداد ، حتى فرغ غالب الناس من الاستعداد ولم يبق إلا السفر وإذا بقاصد من قرا أيلوك يصل إلي مصر ومعه مفاتيح قلعة ماردين ، فغير السلطان أمره وقرر عزمه على السفر هذا العام^(١) .

● ويبدو أن تصرف قرا أيلوك كان حلا مؤقتا حيث انه فيما بعد وقد فهم نفسية برسباى فامتنع عن مراسلته وعاد إلي فسادة في المناطق التابعة لمصر ، هذا في الوقت الذي كان فيه برسباى يشيع أمر السفر بنفسه إلي البلاد الشامية ، وعلا ذلك يخيف قرا أيلوك ، ويحمله على لزوم الطاعة والانضواء تحت لوائه . ولكن يبدو أن ذلك لم يتحقق وان الفساد مستمر والاستهانة بسلطان مصر مستمرة ، و لذلك كان لزاما على برسباى ان يحقق ما أشاعه من

(١) أنباء الغمر ج ٣ ص ٤٧٢ .

مخافة العار والقاله السيئة عنه ، والمحافظة على هيئته ودولته : فإن ميله إلى الصلح ، وطلب قرا أيلوك الموداعة معه لم يتحقق ، ولم تحقق رغبته التي أعلن عنها على مسمع من ابن تغرى بردى فقد قال " لو سألتى قرا أيلوك في الصلح والدخول في طاعتي بمقدار ما ساله للأمير جكم من عوض - نائب حلب - لما مشيت إليه لقتاله ، أو أقل من ذلك لرضيت " وتلك كانت رغبة الامراء خوفا من القتال ، والاستعداد له بالنفقة الكبيرة ولذلك كانوا يشبطون هممة السلطان ويطلبون منه التأني والانتظار^(١). وهذا تحاذل غير مقبول من حماة مصر المدافعين عنها التي ما عرفهم المصريون إلا على اهبة الاستعداد للزود عنها منذ استقروا فيها بأعداد كبيرة من زمن الايوبين المتأخرين .

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٠٢ وحتى انه عين ابن اخته حسن بك بن سالم

الدوكرى التركمانى على نيابة البحيرة . نفسه ص - ١٩٨

• الاستعداد للحرب :

ولما لم يخذ هذه السياسة ولم تثمر ما رجوه ، كان لابد من الاستعداد للسفر الذي اجبر عليه وان يكون الاستعداد مناسباً للهدف منها مناسباً لقوة الخصم الشرس .

ففي جمادى الآخرة سنة ٨٣٦ هـ — ١٤٣٢ م ابتدأ الاستعداد الفعلي الذي استغرق وقتاً طويلاً . ففي الحادى عشر من هذا الشهر^(١) انفق في الامراء نفقة السفر حيث حمل إلى الأمير الكبير سودون من عبد الرحمن نفقة ثلاثة الاف دينار ، وإلى كل من امراء الالفوف — وهم عشرة — الف دينار وإلى كل امير من امراء الطليخانات خمسمائة دينار . وكان هذا بخلاف العادة المتبعة من الانفاق على الممالك السلطانية أولاً ، فقد كان يرمى ذلك إلى سهولة استرداد المال من الامراء ان الغى الحملة . ولأن أمله في الصلح لم ينقطع وأنه كان عنده بخل وعدم محبة للسفر من مبدأ أمره إلى أيام السلطنة^(٢).

(١) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٨٨ ، انباء الغمر ج ٣ ص ٤٩٠ ، نزهة النفوس ج ٣

ص ٢٥٦ ، ثامن عشر في حوليات دمشق ص ٥٤ ، وحادى عشرين في النجوم الزاهرة

ج ١٤ ص ٢٠١

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٠٢

لذلك لم يئأس من الصلح انفق في حوالي ثلاثة الاف مملوك من
المشتريين وممالك الخدمة^(١) لكل مملوك صرة فيها الف درهم وخمسون
دهما فضة اشرفية (٢٢ الف فضة أو مائة دينار)^(٢) وتم ذلك في سلخ
الشهر كما فرق الجمال^(٣) على الممالك . وأرسل إلي نائب دمشق
ليجمع مالا بسبب استخدام الرجال لقتال قرايلوك ، وحدد مبلغ ثمانية
عشر ألف دينار تجمع من المدن الصغرى فوزعها القضاة على البلاد
كالرملة و القدس و نابلس و حوران و البلقان و الغوطة و بعلبك و صيدا
و بيروت^(٤) .

-
- ١- عقد الجمان ص ٤٢٨ ط الزهراء و عدددهم الفان و سبعمائة في السلوك ج ٤ ق ٢
ص ٨٨٨ ، وفي أنباء الغمر ج ٣ ص ٤٩٠ الفا و سبعمائة ، وجعلهم تغرى بردى كثير
دون تحديد . النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٠٣
٢- يذكر بن تغرى بردى أن الممالك اتفقوا على عدم اخذ نفقة فلوسا ولم يصدقوا . ج ١٤
ص ٢٠٣ .
٣- عقد الجمان ص ٤٢٨ ط الزهراء
٤- حويات دمشق ص ٥٣

التحرك نحو الشام:

وفي يوم السبت الرابع عشر من شهر رجب ٨٢٦ هـ ، مارس ١٤٣٣ م خرجت مدورة السلطان وخيام الامراء من القاهرة ، ونصبت في الريدانية لأجل السفر وفي السادس عشر خرج أمراء الجاليش (الجيش) مقدمة العساكر السلطان ولكي يطمئن السلطان على استقرار الامور اثناء غيبته اصدر مرسوماً بأخراج الامراء البطالين من الديار المصرية . ورتب أمور البلاد في غيبته وبعدها توجه السلطان من القلعة - وقد عبأ اطلابه - في الساعة الثالثة من النهار في موكب جليل إلي الغابة ، وقد تجمع الناس لرؤيته حتى نزل بخيمته في الريدانية^(١) .

وقد أفاض ابن حجر في ذكر سير السلطان والمنازل ومسقاتها ، والصعوبات التي صاحبته والجبال والوهاد والارتفاعات مما يعطى تحليلاً طبوغرافياً على طول الطريق ولم يذكره احد غيره كما كان ابن تغرى بردى أكثر وصفاً لأحداث الحملة وتحركات السلطان ونزوله خلالها . اما غيرهما من المؤرخين فمنهم من أوجز في البداية وأفاض في النهاية ومنهم من توسط في أحداث الحملة.

وسوف تعرض لسير الحملة وظروفها وأحداثها ونتائجها بطريقة واضحة لقد تحركت الحملة من الريدانية يوم الجمعة العشرين من شهر رجب بعد

صلاة الجمعة وعلى رأسها السلطان برسباي والخليفة العباسي المعتضد بالله والقضاة الاربعة : شهاب الدين بن حجر الشافعي ، بدر الدين محمود العيني الحنفي ، وشمس الدين البساطي المالكي ، ومحب الدين احمد البغدادي الحنبلي وكاتب السر القاضي كمال الدين محمد البارزي ، وناظر الخاص ابن كاتب حكيم وائمة السلطان و نديمه ولي الدين محمد بن قاسم السيدي . و غيرهم وسار الجاليتين أمام السلطان مرحلة وهم : الأمير الكبير سودون بن عبد الرحمن . و قر قماش حاجب الحجاب ، و أينال الحكمي أمير سلاح وسودون يبق وقنباي الحمزاوي^(١) . واستمر السير حسب المنازل على الطريق حتى وصل غزة في غزة شعبان و خرج منها بعد ثلاثة ايام قاصدا دمشق التي وصلها يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان . حيث نزل في برزة من غوطة دمشق . و عمل الموكب السلطاني واجتاز دمشق في أبهة السلطنة و شعار المملكة في موكب جليل يحمل القبة و الطير على رأسه الأمير جار قطلو نائب الشام . ولم يزل السلطان بعساكره في المدينة شفقة على أهلها^(٢) .

بعد أربعة أيام أو خمسة - دخل فيها دمشق غير مرة و طلع إلى قلعتها - ارتحل بأمراته و عساكره في العشرين من رجب قاصدين حلب

(١) عقد الجمان ص ٤٢٩ ط الزهراء ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٠٧ ،

حوليات دمشق ص ٥٨ وما بعدها

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٠٨

فمر بجمع ثم حماه حيث خرج إليه الأمير جليان نائبها لملاقاته لعسكرها ، فاقام السلطان بظاهرها ثلاثة ايام فوصل حلب يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان ، ونزل في الميدان بظاهرها في الخيمات التي نصبت ودخلها باهية السلطنة كما دخل دمشق ، وحمل القبة والطير أمير حلب قصره من نمراس ، وشق المدينة في موكب حافل^(١)

إلى أمه:

وقد قام بحلب خمسة عشر يوما . يأمر وينهى ، ويؤتي ويعزل ، ويركب خلالها إلى داخل المدينة وإلى قلعتها وكان هدفه من اطالة المدة ان يرد إليه قصاد الأمير عثمان قرا ايلوك في طلب الصلح فلم يرد عليه أحد ممن يعتمد عليه السلطان على كلامه ، عند ذلك تمياً للخروج إلى جهة آمد^(٢) . وقد حضر إلى السلطان في حلب أكابر أمراء التركمان مثل ابن رمضان وابن قراجا ومن الأمراء العرب^(٣) من كلاب جمع كبير حتى بلغ عددهم ما يقارب عشرة آلاف^(٤) . وقد تحركت العساكر

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٠٩ ط الزهراء ، عقد الجمان ص ٤٢٩

ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩١ ، حويات دمشق ص ٦٢ ، انباء الغمر ج ٣

ص ٤٩٤

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٠٩ ط الزهراء

٣- انباء الغمر ج ٣ ص ٤٩٥

٤- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٥

الشامية والصفدية والطرابلسية والحموية والغزية قبل السلطان وعمروا جسرا من المراكب على الفرات وحموه من محاولة قرقماس البدوي العاصي حيث ارسل جماعته ليحرقوه ، فقبض علي جماعته - اكثر من عشرين - ثم لحقهم نائب حلب بقواته ، ثم السلطان في ليلة الحادي والعشرين من رمضان حيث نزل في البر الغربي^(١) حتى تعبوا لقوات ولما عبرت تحرك للعبور حتى لا يحدث اضطراب عند العبور . ونزل بقلعة البيرة في السادس والعشرين من رمضان ونزلت بقية العساكر على نهر الفرات فرتب أمورها ، وترك بها أشياء كثيرة من الأثقال السلطانية ورحل عنها في اخر رمضان حيث نزل الرها ليلة عيد الفطر فوجدها خاوية من أهلها واصحابها خرابا لم يبق بها الا من عجز عن الحركة . ونزل السلطان بظاهرها من جهة الشرق^(٢) .

وفي يوم عيد الفطر انشغل السلطان بالتوجه نحو آمد ، بالاسلحة والالات الحرب حيث نزل عليها يوم الخميس ثامن شوال ، وقد صف

١- يذكر بن حجر أن عبور السلطان كان قبل العسكر - نفسه ٤٩٦ - انظر النجوم

الزاهرة ج ١٤ ص ٢١٠

٢- دخل ابن تغرى بردى مدينة الرها وطلع إلى قلعتها ، اما القاضي الشافعي ابن حجر فقد خبره السلطان بين الاقامة في البيرة أو حلب ، فاختار صحبة القاضي الحنفي بدر الدين العيني ليتوجها إلى بلدة عينتاب للضيافة فصحبهما أمير وخمسة من الرماة . النجوم الزاهرة ج ١٤

ص ١٢١١ ، عقد الجمال ص ٤٣١ ط الزهراء ، انباء الغمر ج ٣ ص

عساكره عدة صفوف وراءهم الثقل والخدم ، حتى ملأوا الفضاء طويلا وعرضا وقد هال أهل آمد ما رأوه من كثرة العساكر وتلك الهيئة المزعجة التي قل أن يجتمع في عساكر الإسلام مثلها من ترادف العسكر والاطلاب والموسيقات التي تملأ المكان والاعلام والرايات المتنوعة . فوق الرجيف والخوف في قلوب أهل تلك البلاد وانذهل أهل آمد مما عاينوا من الكثرة والتنظيم وعدة القتال المتنوعة.

الحصار والقنال :

نزل السلطان و العساكر عند آمد ، وحطوا رحالهم . في الفضل حو لها صفوفها كثيرة كما ذكرت لمسافات بعيدة كمدد العين على حد قول ابن تغرى بردى وصار الرجل من العسكر إذا تكلم مع رفيقه لا يسمع رفيقه كلامه الا بعد جهد كبير لعظم الغوغاء ووقفوا أمام خندق المدينة^(١) .

وقد كانت أخبار قرا ايلوك معمية على السلطان وعسكره فلم يعرف له خبرا والأقوال في الموقف مختلفة ، فمن قائل بانه متها للقتال ، ومن قائل انه متحصن داخل المدينة ، ومن قائل انه تركها وسار بعساكره واسلحته . ثم تأكد الموقف حين نزلوا على المدينة التي لم يكن لها قلعة ، وانما لها حصون منيعة وسورها شديد الأحكام والإتقان مما يصعب من

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ — ٢١٢

حصارها ويبعد أخذها عنوة لأن بدنة السور تحميها بدنة أخرى وهكذا^(١). ولم يرم أحد من الداخل بسهم في اليوم الأول الا نادرا ، ولا علا أحد منهم على شرفات البلد الا نادرا ايضا ، وصاروا ينظرون إلي العساكر من الفروج التي بين الشرفات كما أمر السلطان بعدم الرمي على المدينة هذا اليوم ايضا ولكن أوباش القوم تراموا بالسهام قليلا . وكان الغرض من نهى السلطان التوقف على الاخبار والتأكد من القوات داخل المدينة ليحسن التعامل معها .

وقد علموا ان قرا ايلوك ترك آمد ولكن بعد اغراق الاراضى حولها من ماء دجلة ليعرق تقدم المهاجمين فأحدث بعض الاضطرابات وان لم يمنع المصاف ثم توجه نحو أرقين التي هي عمدة مملكته^(٢). وترك أحد ابنائه بمدينة آمد في قوة كبيرة . فتكلم السلطان في تسليمها قبل الحرب ، وامتنع من بها عن ذلك الا عن أذن قراأيلوك وهو ليس بها .

هذا في الوقت الذي احدث فيه الجنود بالمدينة من جهتها الغربية ، فتزاحفوا نحو الخندق حيث وقع قتال عنيف ، وأنشغل البعض بردم الخندق ، وقد اشرف المصريون واعوانهم على اخذ المدينة . ولكن اشتدت المقاومة فصعب الاقتحام .

(١) نفسه.

(٢) عقد الجمان ص ٤٣٠ ط الزهراء

ثم تراحم الناس وتراموا بالنشاب والسهام والحجارة ، وقتل وجرح من الطرفين جماعة منهم مراد بك بن قرا ايلوك ، وحمزة الخلزندان ، وقبض على جماعة من اهل آمد فقتل البعض ، وترك البعض في حديد^(١) كما جرح من المماليك جماعة.

ويبدو أن السلطان لم يجد الحماس الكافي من هذه الجموع الكثيفة لأقتحام المدينة فأخذ في مقت المماليك وتوبيخهم ، وصار كلما جرح واحد من العساكره وأتى له به يزدريه ويهزأ به . وينسب القوم للتراخي في القتال . ثم لبس لباسه الكامل من خوذة وركب واراد اقتحام المدينة بنفسه ، فوقف له أعيان امرائه^(٢) وحاولوا اثناءه عن هذه الفكرة فهو القائد ، وحياته مهمة ، فهو الرمز الذي يلزم المحافظة عليه ، وان المحاولة ستكرر وان النصر آت لا ريب فيه أن لم يكن اليوم فغدا ، والدعوات بالنصر له تتردد في الجنبات ، وهو يلقي باللائمة على الجند بالتهاون في المهمة ومازال به الامراء بشقى الأساليب حتى اثنوه عن رغبته^(٣) هذا في الوقت الذي سئم فيه الناس القتال وظهرت الجراحات^(٤) ، فلما سخط

(١) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٥

(٢) تحدث إلي ه قصروه نائب حلب ، ومقبل نائب صفد ، جقمق العلاني لتسكين غضب

السلطان . النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢١٤

(٣) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢١٤

(٤) كان من ممن جرح تغرى بردى اخمودى ، سودون ميق ، تنبك البهلوان وكثير من

السلطان فتر عزم القوم عن القتال، من يومئذ . هذا أمر غريب لأن القوات التي تجمعت حول آمد بإمكانها اقتحامها بل وعدة مدن أخرى مثلها ، ولكن أمر الله ومشيتته أقتضت هذا التخاذل.

ويبدو أن القتال توقف بضعة أيام ، فقد وجد أهل آمد راحة بعودة القوم عنهم من شدة القتال ممن لا قبل لهم بقتاله.

وقد اتفق السلطان مع امرائه على نشوب القتال يوم الثلاثاء كأعنف ما يكون ، وان يتقدم المماليك القرانيص ثم وراءهم الاجلاب ممالك السلطان وكانت وجهة نظره لعدم كفاءة خبرة ممالكه الحربية ، ولكن الناس فهموا عكس ذلك . فقد ظنوا ان السلطان يشفق عليهم ويريد هلاك سواهم فتكرت له القلوب . واتفق البعض للوثوب عليه عندما تسنح الفرصة^(١) . ولذلك تشوش السلطان واضطرب امره لما بلغه هذا الامر ، وندم على سفره ، وفتر عزمه ، وضعف عن تدبير القتال . ومع ذلك نصبت المكاحل والمدافع حول المدينة^(٢) . واثناء ذلك الحصار الذي طال لمدة خمسة وثلاثين يوما. حدثت امور مهمة منها :

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢١٥ ، وكان من اقم بذلك جار قطلو نائب الشام وكرباي نائب طرابلس ، ومقبل نائب صفد ، وتغرى بردى الحمودى ، وسودون بيق ، وجانبك الحمزاوى وغيرهم.

(٢) عقد الجمان ص ٤٣٢ ط الزمراء ، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٨

١- حضر إلي السلطان الامير دولات شاه الكردي صاحب آكل من ديار بكر فاکرمه السلطان وخلع عليه وانزل في العسكر^(١).

٢- وفد إليه الاشرف احمد بن الملك العادل الايوبي صاحب حصن كيفا لما بلغه وصول السلطان فخرج في قليل من عسكره في أوائل ذى القعدة ، وقد اعترض مسيره جماعة من اعوان قرايلوك على حين غفلة ، اثناء نزوله لصلاة العصر قتل بسهم اصابه ، ونهب من وما كان معه ، وقدم جماعة منهم على الملك الاشراف برسباى وعرفوه بقتل الاشرف صاحب كيفا فعظم عليه ذلك . وندب جماعة كبيرة من التركمان والعرب من عسكره لتتبع القتل ، فوافوه بنحو عشرين نفسا من قرايلوك فأمر بقتلهم ، كما وافوه بجماعة اخرى حوالي ثلاثين فردا منهم قرا محمد أحد أعيان أمراء قرايلوك ، وهدده ان لم يسلم المدينة بالقتل ، فما كان من المغلوب على امره إلا السير تحت الأسوار والدعوة للتسليم ولكنه لم يلتفت إليه احد ، فوسط عشرين هو

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٧ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٠ ، حليات

دمشقية ص ٦٩ . وفي بدائع الزهور نحو أربعين يوما . ج ٢ ص ١٤٩ .

أحدهم^(١). ثم تولى ابن الأشرف مكانه ويدعى خليل الذي أرسل إلي السلطان تقدمه مع أخيه يحيى .

٣- بلغ السلطان أن قراا يلوك قد نزل من قلعة ارقنين بجامعة من عساكره يريد الهجوم على السلطان في الليل ثم التوجه إلي حلب ، فندب السلطان جماعة من الأمراء والمماليك لعمل الحرس بالنوبة في كل ليلة لحفظ العساكر ، ثم ندب جماعة للتوجه إلي ارقنين لحرب قراايلوك فهزم المقدمة ، وانتصر البعض فاضطر قراايلوك للتحصن بالقلعة ، وقد هبت عساكره ، وعاد الجمع إلي الوطاق^(٢) .

٤- المعروف أن الجيش وأمراءه كان بحاجة إلي المؤونة ، فأخذ التركمان والعربان يعشون وينهبون القرى لاطعام العساكر وحيولهم وصارت الغلمان تخرج من الوطاق إلي جهات أمد وتحصد الزرع وتأتي به للأجناد ، حتى صار أمام كل خيمة جندي جرن من الزرع . وهذا التصرف أدى إلي تدبير علوفة الخيل وطعام العسكر طول مدة الإقامة وقد نزل محمود بن قرا

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢١٨

(٢) نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٦١ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢١٨ ٢١٩

وكان بن تغرى بردى مع هذه المجموعة كما يفهم من كلامه . انظر انباء الغمر ج ٣ ص

ايلوك في عسكر على جبل مشرف على العسكر^(١) وصار يقتل
من خرج من غلمان ونحوهم لأخذ القمح ونحوه ، ومنع الميرة
عن العسكر ويبدو انهم تصدوا له .

الصلح وعودة الحملة :

كل هذا والسلطان مجتهد في عمارة القلعة من الخشب تجاه ابواج
أمد ، مكاحل النفط ترمى في كل يوم بالمدافع ، وانجانيق منصوبة يرمى
بها ، وأهل آمد في أسوأ ما يكون من الحال . ومع ذلك لم يلتفت
السلطان لحصار قوى محكم على المدينة لشغل خاطره من جهة اختلاف
العساكر ، وحتى ان جار قطلو نائب دمشق لم يحارب بالفعل مع الذين
ارسلهم نحو قراييلوك كما في رقم ٣ ، وانشغل بسقى خيوله من الفترات
ولم يلتفت للقتال^(٢) . ويبدو أثر هجوم الاجلاب السابق عليه في بيته
كان له دور في هذا الفتور والتأمر فقد تورط السلطان في حصار أمد
وصار بين نارين ، وطالت اقامته حتى بدأت بوادر انفراج الازمة للطرفين
فقد ضاق الحال على اهل آمد مما اضطر معه قراييلوك إلى طلب الصلح
، حيث ارسل قرا أحمد ابن عمه وكاتب سره إلى نواب الشام لأتمام
الصلح ، ومازالوا بالسلطان حتى وافق عليه وبعث إليه شرف الدين ابا

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٥

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٨٢٠

بكر الاشقر نائب كاتب السر ، وحى ابن تغرى بردى الذي ارسل معه بعض ممالك والده ومع الاشقر كتاب الصلح ، وخلة تتكون من كاملية مخمل بسمور وفوقاني كمخا بطراز عريض زرکش . وفرس خاص بسرج ذهب وكنيوش زرکش^(١) .

فلما بلغ قرايلوك محيى القاضى شرف الدين نزل من قلعة ارقنين وسلم عليه ثم قبل الارض ، فألبسه القاضى الخلعة ، ثم سلمه الأوجاقى الفرس فأمره القاضى بتقيل حافره فامتنع قليلا ثم فعل ، ثم تحدث معه حديثا ذكره ابن تغرى بردى^(٢) .

وكانت بنود الصلح أن يقبل الارض للسلطان ، ويخطب باسمه في البلاد ، ويضرب السكة على الدينار والدرهم باسمه ، والا يتعرض إلى شئ من اطراف المملكة من الرحبة وإلى دوركى . وان يسهل طرق الحجاج وانتجار من المسافرين ولا يتعرض لحصن كيفاً ولا لرعيها وحكامها ، ولا لدولات حاكم آكل وقلاعه ، وان يمثل ما يرد عليه من مراسيم السلطان .

١- عقد الجمان ص ٤٣٢ ط الزهراء اضاف بن تغرى بردى الفوقاني بوجهين احمر واخضر . النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٠

٢- يروى انه قال: والله ان هذه عادة تعمسة ، ثم قال القاضى ، وأنا من أين والسلطان من أين ؟ انا رجل تركمانى في جهة من جهات . ثم اضاف مبينا وجهة نظره في استعدادات برساى بانه كان يكفيه بعض نواب السلطان ، وماذا يفعل السلطان لو اخذ أمد وكل شئ . النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٤ ، عقد الجمان ص ٤٣٣ ط الزهراء

ولما نفذ ذلك ووافق عليه وعظه الشيخ القاضي بعدم مخالفة السلطان وبين له سوء العاقبة عاد شرف الدين إلى السلطان الذي سر قليلا بذلك ، وعظم سرور من حضر من القوم ، و معظم السرور بعد هم إلي بلادهم وأوطانهم سالمين مما ها لهم من مشقة . وقد اعتادوا الترف والامن وقلة القتال .

وفي الحال أخذ السلطان يستعد للرحيل الذي حدث ليلة الخميس الثالث عشر من ذى القعدة - في النصف الثاني من الليل - من غير ترتيب ولا تطليب - جعل العسكر اطلاب اى جماعات - ولا حتى تعبئة ، ورحلت العساكر من أمد كالمهزومين لا يلوى احد على احد للأسف . لقد رحل الناس على هذه الهتية مسرعين ، خوفا من ان يتركهم السلطان لمصير مجهول وذلك ان السلطان قد ترك المكان قبل ان يتحرك نصف العسكر ولذلك تفرقوا في الطريق وتعرضوا لمشاكل وصعوبات كثيرة حتى السلطان نفسه الذي سلك الطريق الأوسط لم يسلم منها فالطريق عسر للغاية فهو كالمفازة ، كما تعرض بعض من معه لخطر تخطف السباع هذا بجانب الخوف من مباغته قرايلوك لقربه من ارقنين قرابة مقدار نصف بريد تخميناً^(١).

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٢ . والبريد أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة اميال . وقد تمزقت العساكر في طرقات متعددة ، لا تعرف طائفة خبرا عن الأخرى لبعدها المسافة بينهم ، فطريق سودون بن عبد الرحمن المريض ومن معه كان طريق ماردين الرها ومعه طائفة =

ولذلك عندما نزل السلطان امر بتشديد الحراسة حوله خوفا لقلعة
عساكره واسند هذه المهمة للأمير جقمق العلاني - أمير اخور كبير -
فقام وجماعته بهذه المهمة حتى الصباح.

ثم توجه السلطان صباح الجمعة إلي الرها واقام بها مدة حتى
وصل بقية العسكر ، ثم اخذ في اصلاح امرها وعرض نيابتها على الامير
اينال العلاني - نائب غزة- أو السلطان فيما بعد فاعتذر بطريقة غير
مقبولة فطلب الامير قراجا الاشرفي شاد الشرايخانة و خلع عليه
باستقراره في نيابتها ، و خلع على القاضي شرف الدين نائب كاتب السر
باستقرار كاتب سر الرها ، و خرجا بالخلع على كره^(١).

ولكن سرعان ما اعتذر اينال عن تصرفه بعد نصيحة اصحابه له ،
وعلل ان سبب امتناعه خراب الرها ، وليس بها ما يعتمد عليه ، فقبل
السلطان اعتذاره ، و خلع عليه النيابة ، و امر الامراء بترك ما معهم من
المؤنة لإنيال فاجتمع من ذلك الشئ الكثير كما أنعم عليه السلطان

=كبيرة من العسكر السلطاني وطريق جماعة أخرى كان طريق التوجه للجيش نحو آمد أي
طريق العودة هو طريق الوصول .

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٣ . . الذي يذكر ان اينال فحسن في
الرد وخاشن السلطان في اللفظ ، فغضب السلطان عليه وهو بالايقاع به ، ولكنه خشى عاقبة
ذلك من معظم شوكة اينال ، وتأثيره على امراء السلطان وموالي كره.

بأشياء كثيرة واصلاح امره ، وقد دفع له مبلغ خمسة الاف دينار^(١) .
واستعفى كاتب السر شرف الدين . فقبل منه بعد ان دفع خمسمائة دينار
للخزانة الشريفة .

وبعد هذه الاجراء . وتجمع فلول العساكر غادر الرها إلى البيرة
التي انتظر بها حتى عبرت عساكره الجسر على الفرات ثم تحرك حتى
وصل حلب في الخامس عشر من ذى القعدة ونزل بنفس مكانه بظاهر
المدينة مدة عشرة ايام حتى يستريح عساكره من المعاناة الرهيبة ، ثم امر
النواب التوجه إلى محل نياباتهم ، ونظم الامور وتفقد المدينة والقلعة ثم
رحل إلى جهة دمشق فدخلها يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة ونزل
بقلعتها ، ونزلت عساكره بالمدينة ومكث بها مدة ، ثم خلع على النواب
وتحرك نحو القاهرة فوصلها في يوم الاحد العشرين من محرم ٨٣٧ هـ (
سبتمبر ١٤٢٣ م) حيث دخل من باب النصر في موكب جليل باهية
الملك وشعار السلطنة ، وعلى راسه القبة والطير حملها سودون من عبد
الرحمن وهو مريض .

وقد شق السلطان بموكبه القاهرة التي تزيت لاستقباله (من ١٢
محرم) احسن زينتها ، وسار حتى نزل بمدرسته بخط العنبرانيين من القاهرة
، فصلى لله ركعتين ، ثم ركب من باب زويلة حتى طلع القلعة ، وقد

(١) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٨ ، حوليات دمشق ص ٦٩ ، عقد الجمان ص —

فرشت له شقق حرير واستقبله الجمالي يوسف (ولده) بالخانقاه وعاد معه . وكان لقدمه يوم مشهود ، وسر الناس بسلامته ، وخلع على أرباب الدولة ^(١) .

وقفه مع الحملة:

وإذا كنا قد وقفنا على تفضيل الحملة من بداية تحركها حتى عودتها ، والاحتفال غير المتناسب مع ما حققته الحملة ، فإننا نحاول تحليل هذه الحملة ليتبين لنا مواطن القصور التي أدت إلى هذه النهاية غير المتوقعة — فقد كنا تأمل معها ان تكون كحملات المؤيد شيخ المؤثرة ضد التركمان ، أو تفتحهم المدينة على الأقل أو حتى تتعامل مع قرا ايلوك في قلعة ارقنين بحسم اكثر من مجرد ارسال المشبطين . ولكن لم يحدق شئ من ذلك وانتهى الأمر بصلح باهت لم يحافظ عليه قرا ايلوك بعد عودة القوات المحاصرة كما سترى بعد قليل .

لم يكن ما حدث في آمد متناسبا مع الاستعدادات الكبيرة ، و الأعداد الكثيرة ^(٢) ، فقد كانت تنقص هذه الجموع الحماسة و الحمية أو الروح

(١) عقد الجمان ص ٤٣٣ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٠٤ ، نزهة

النفوس ج ٣ ص ٢٧٢ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٦ حوليات دمشق

ص ٨٠

(٢) بجانب القوات المصرية كانت القوات الدمشقية والحلبية والصفدية والغزية وعشرة الاف

من الاعراب وغيرهم

القتالية التي تتضاءل أمامها الصعوبات والمعوقات ، وكفي بهذا عاملا للتخاذل والانهزامية الذي اصاب القوات المتجمعة حول امد. هذا بجانب قوة اسوار المدينة وحصانيتها وشجاعة المدافعين عنها ، التي حالت دون تحقيق هذه الزخوف غير المتحمسة لاقتحامها . وربما كانت الظروف المناخية عاملا مساعدا في النتيجة السلبية ، فالحر شديد ، والذباب كثير والجثث متعفنة وهذا الجو ادخل الملل وانسأَم إلى نفوس الجموع التي لم تستطع التأقلم معها.

كما أن الاقوات كانت قليلة لطول مدة الحصار (٣٥ يوما) وكذلك علف البهائم والخيول حتى ضج العسكر من هذا الموقف ورددوا :

في آمد رأينا العونة
الغلام فمار ويطحن
في كل خيمة مرجونة
والجندى يجيب المونة^(١)

وقد اشرنا إلى انشغال الكثير من الناس باحضار ما يحتاج إليه الجيش حتى لقد تجمع امام كل حمية كومة من الغلال وقشها ، ولا نشغال بالطحن وخلافه ، ومع الضجر بين القوات المحاصرة ، فقد كان لإتلاف زروع الناس تأثيرها السلبي كذلك^(٢) ناهيك عن الغلاء وارتفاع الاسعار^(٣) . ثم كان التأمر ضد السلطان نتيجة ازدرائه لهم في بداية

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٨

(٢) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٨

(٣) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٧

حصار آمد حتى " قامت قيامة القوم ، وتنكرت القلوب على السلطان في الباطن وتطاوالت اعناق امرائه إلى الوثوب عليه ، واتفق كثير منهم على ذلك " (١) .

لكل هذه العوامل مع سوء حظ السلطان في خروجه ، فسعده لا يعمل الا وهو في القلعة وحيثما تحرك بنفسه بطل سعده (٢) . وان كان تصريف الامور وتدبيرها بيد الله .

وكذلك تشاؤمه من قتل الملك الاشرف احمد صاحب حصن كيفا حتى انه اخذ في اسباب الرحيل عن آمد غير انه صار يترقب حركة يرحل بها تكون لرحيله مندوحة (٣) فالروح الالهزامية للسلطان ولقاداته وجنوده بجانب الظروف التي اشرت إليها كانت هذه النتيجة الباهتة التي كانت فض مجالس .

وليزيد الامر وضوحا نستأنس بأراء المؤرخين المعاصرين الذين اشتركوا في الخروج مع الحملة والذين لم ترضهم النتيجة ، فتحسروا على الاموال الباهظة التي انفقت على الحملة ، والاثار السلبية التي ارتبطت بمسيرها واقمتها في حصار آمد وعودتها . فقد عاد السلطان إلى مصر بعد ان أتلّف في هذه السفرة خمسمائة الف دينار من النقد وتلف من السلاح

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢١٥

(٢) نفسه ص ٢٢٦

(٣) نفسه ٢١٧

والمناخ والخيول والجمال والبغال مثل ذلك ، وأنفق الامراء بمصر والشلم
والعساكر المصرية والشامية مثل ذلك وتلف لأهل آمد وما حولها من
الغلال والزراعات شئ كثير إلى الغاية وقتل ايضا خلائق . ومع هذا كله
كانت سفره كثيره الضرر قليلة النفع ... ولم ينل احد من هذه السفرة
غرضاً من الاغراض ولا سكنت فتنة ، ولا قامت حرمة ، ولا ارتدع
عدو^(١) . ولو اقام بمصر وارسل تجريدة ثقيلة مع الامراء والعسكر لكان
عين الصواب .

عودة التمرد ونتيجته :

وإذا كان قد تم هذا الصلح المهش فإن فيه دلالة على حسن سياسة
قرا ايلوك الذي ادرك المشقة التي تكتنف اهل آمد وربما تسقط في ايدي
القوات المحاصرة وكذلك صعوبة موقفه فطلب عقد صلح ولذلك اعجب
به ابن تغرى بردى لسياسته وقال " علمت حال قرا ايلوك وهمته ، فإنه لو
كان فيه بقية ما ترك عساكرنا في تلك الليلة بخير^(٢) ... فقد بلغه ما وقع

(١) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٨ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٦ ، انباء

الغمر ج ٣ ص ٤٩٨ ، نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٦٦ ، حوليات دمشق ص ٧٠ -
مصر في دولة الجراكسة ١٢٣ .

(٢) الليلة التي باتها السلطان قرب ارقنين في قله من عسكره حين سار على طريق قبل قرا

لعساكرنا من الشتات والتفرق^(١) وعلم بجميع ما نحن فيه لقرب المسافة بيننا ، وما ترك الايقاع بنا الا عجزا وجبنا وضعفا" ويضيف ايضا ما يوضح موقف اهل أمد وما اصابهم من طول الحصار فلو كان منهم قوة بعد ما عاينوا ما وقع لعساكرنا عند الرحيل ... لاستولوا على جماعة من العسكر.

ولذلك لما عادت القوات السلطانية و اطمأن قراايلوك لوضعه عاد إلي افعاله الشنيعة من نهب وقطع الأشجار^(٢) . فلما وصلت الأنباء إلي السلطان ادرك خطورة الموقف وان حملته لم تؤت ثمارها . فعزم على الاستعداد للعودة إلي أمد ولذلك يذكر بعض المؤرخين انه في خامس عشر من ربيع الأول نصب المدفع الذي اعد للحصار أمد وهو مكحلة من نحاس زنتها مائة وعشرون قنطار مصريا ، وكان نصبها فيما بين باب القرافة وباب الدرفيل فرمت إلي جهة الجبل بعدة احجار ، منها ما زنته خمس مائة وسبعون رطلا . وقد جلس السلطان بأعلى سور القلعة لمشاهدة ذلك واجتمع الناس واستمر الرمي عدة ايام .

وفي شهر رمضان ٨٣٧ هـ اغارت القوات التركمانية على الرها فتصدى لها اميرها اينال العلاني وحدثت بين الطرفين وقعة هائلة قتل فيها عدد من الفريقين فلما بلغ السلطان هذه الاخبار شق عليه ،

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٣

٢- بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥٠

وعزم على السفر ثم كتب إلى سائر البلاد الشامية بالاستعداد للتوجه نحو دمشق عند نائها الجديد قرقماس الشعباني ، ثم توجه الجميع نحو الرها لحمايتها من خطر قرايلوك . ثم بطل ذلك ، وأمرهم بالاستعداد عند نزول قرايلوك على الرها بعساكره والأفلا^(١) .

وأشيع في شوال بين الناس سفرا السلطان إلى آمد ، وأنه كتب لساير النواب بتعبئة الاقامات لسفر السلطان والعلاقات للخيول^(٢) . ولم يتم خروج السلطان لذلك .

وفي ربيع المحرم ٨٣٨ هـ وصل رسول الأمير عثمان بن قرايلوك ، وصحبته كتابه وتسعة أكاديش مقدمة للسلطان ، ودراهم مسكوكة باسم السلطان^(٣) .

ولم يكن ذلك كافيا لإعلان الولاء والخضوع لبرسباي الذي أظنه لم ينخدع بها ، لأن الاخبار وصلت إلى السلطان في جمادى الآخرة بتزول قرايلوك بعساكره على الرها وبعضها بقيادة ولده الذي وصل إلى ملطية واغار على دروكي فنهب شيئا كثيرا^(٤) . لذلك شرع في الاستعداد

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٣٣ ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩١٥ ،

نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٨٦

٢- نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٨٨ ، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥٧ ، حوليات دمشق ص

١٠٨

٣- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٢٦ ، نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٩٩

٤- نزهة النفوس ج ٣ ص ٣١١ ، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٦١

للسفر لقتال قراييلوك والفحص ايضا عن جانبك الصوفي^(١) ولم يتم ذلك.

وهكذا ظل الفساد قراييلوك وغاراته المتكررة على بلاد السلطان وربما كان متشجعا بموقف شاه رخ الضاغط على سلطان مصر ، وتكرر معه الاستعداد للخروج فقط دون نية حاسمة ، وقد مثل ذلك للسلطان قلقا مستمرا على مدى سنتين .

وشاءت ارادة الله ان تريح برسباى من خطر هذا القراييلوك بقتله على يد اسكندر بن يوسف التركمانى صاحب بغداد ، فيذكر المؤرخون ان اسكندر هذا زحف من تبريز لقتاله ، ونزل بالقرب من ارزن الروم - أرضروم - حيث وقع بين الطرفين قتال عنيف ظهر في أوله قراييلوك الذي ثبت في المحركة ، ولكن سرعان ما تغير الوضع وهجم اسكندر بقوة على عسكر قراييلوك فهزمهم ، وقصد قراييلوك الهرب إلى مدينة ارزن الروم ، فتبعت قوات اسكندر ، فالقى بنفسه في خندق المدينة لينجو بنفسه وخوفا من ان يأسره اسكندر فوقع على حجر شجه ثم رفع بأحبال من على سور المدينة حيث مات بها^(٢) ودفنه ابنائوه . ومازال

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٤٠

٢- قيل انه مات وقد قارب المائة سنة و حكم نيفا وخمسين سنة.

اسكندر يفتش^(١) عن قبره حتى عثر عليه فأخرجه وحزّ راسه وارسل بها مع عده روؤس اخرى إلى برسبای سلطان مصر .

وقد وصل قاصد اسكندر بن قرا يوسف في سابع عشر ربيع الآخر صحبة الامير شاهين الايد كاری برأس عثمان بن قراييلوك والروؤس الاخرى ، وكان السلطان قد توجه للفسحة والرماية بجوارح الطير على الكراكي . فقدم من الغد - يوم الخميس ١٨) فطيف بالروؤس الستة على رماح . وقد زينت القاهرة لذلك ، فرحا بقتل قراييلوك ، ثم علقت على باب زويلة ثلاثة ايام ودفنت^(٢) .

وبموت قراييلوك تفرق أولاده وانكسرت شوكتهم ، حتى ان بعضهم دخل في طاعة السلطان برسبای ، فارسل له تقليد أمد وخلعة . فاصحى تابعا لمصر حسب العرف السائد . ولكن اخاه حمزة امير ملردين وارزنكان وارزن الروم هاجمه واستولى على أمد وملكها منه . فقلق السلطان لذلك وتحفز للخروج على رأس حملة لتأديب حمزة ، وكتب

١- رأس ولديه وثلاثة روؤس أخرى من امرائه . النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٥٤

. ويذكر ابن اياس ان عدد الرؤوس التي قدمت ثلاثين راسا ، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٦٦

٢- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٣ . النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٥٤ ط الزهراء

، عقد الجمان ص ٤٦٧ ط الزهراء ، حوليات دمشق ص ١٤٤ ، البدر الطالع

للشوكاني ج ٢ ص ٤١٣ - ٤١٤ ، انباء الغمر ج ٣ ص ٥٤٤ .

بتجهيز الاقامات بالشام ثم بطل ذلك بعد ايام^(١) فاستفحل امر حمزة .
وامتد سلطانه في اكثر نواحي ديار بكر وغيرها^(٢) .

ولما التجأ جانبك الصوفي إلي اخويه محمد ومحمود بعد مفارقتهم
لأولاد دلغادر طلب حمزة بان يرسله إليه في الحال مكرما مبجلا ، وذلك
ليخوف به الملك الأشراف كلما سنحت الفرصة ، ولكنهما قتلاه لأغواء
نائب خلب تغرى برمش لهما^(٣) فحقق عليهما حمزة لهذا التصرف ،
واستدعى اخاه محمد ليوليه بعض البلاد فانخدع له محمد ومال وما ان
وصل إلى بلاد اخيه حمزة حتى قبض عليه وقتل في الحال انتقاما لمقتل
جانبك ، وجزاء الباغى من جنس عمله^(٤) .

ولما وصلت السلطان انباء الاضطراب عند الحدود المصرية
الشمالية والشرقية من شاه رخ وناصر الدين محمد بن دلغادر . وحمزة
بن قرايلوك ووجد ان ظروفه الصحية لا تساعد على الخروج على رأس
حملة جديدة / رسم في السابع من رجب سنة ٨٤١ هـ بخروج تجريدة

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٢٧ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص

١٠٢٥

(٢) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠١٠

(٣) أرسله برأسه إليه ، فحصل على خمسة الاف دينار . السلوك ج ٤ ص

١٠٢٣ - ١٠٢٤

(٤) نفسه ص ١٠٣٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٧٣

كبيرة كتلك التي خرجت أواخر ٨٣٩ هـ لتتبع جانبك الصوفي ونناصر الدين محمد بن قرمان.

وقد عين لهذه الجريدة ثمانية من الامراء المقدمين : قرقماس الشعباني أمير سلاح واقبغا التمرأزي أمير مجلس ، واركماس الظاهري الدودار ، وتمرأز الدقماقي رأس نوبة التوب ، ويشيك حاجب الخجابه وجاثم امبرآخور وخبماسودون وقراجا الأشرافي . وحمل لكل أمير الف دينار اشرفية ، وكان ذلك في رجب فاستعدوا وخرجوا في شعبان دون ان يرافقهم احد من المماليك السلطانية وكتب إلي نائب الشام الأمير اينال الحكمي بأن يتوجه بمن معه صحبة الامراء إلي حلب^(١) .

ولما وصلت التجريدة إلي حلب ارسل قائدها قرقماس الشعباني إلي حمزة يدعو للدخول في الطاعة والاعتراف بالسيادة المصرية فخاف حمزة واثار السلامة ، فاجاب بالسمع والطاعة لتغير الظروف . ولكي يبرهن على صدقه أقام الخطبة على منابر بلاده للسلطان برسباي ، وضرب النقود باسمه وجهاز جزءاً منها ارسله مع هدية إلي مصر ، فلم يصل رسوله مراد بك الا بعد موت برسباي . فاستقبله العزيز يوسف

(١) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٣٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٧٠ ، ويذكر

بن إلي اس ان السلطان ارسل معهم الف من المماليك السلطانية وان نفقة مقدم الف هي الف دينار وامير سلاح ثلاثة الف دينار . بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٠ ، عقد الجمان ص

ابنه^(١) ، وقبل الهدية وارسل هدية وتشريفا وخلعة على انه من نواب السلطنة المصرية^(٢) .

اما بقية اخبار الحملة فقد وصلت إلي ابلستين واتفقت مع حمزة ثم قصدت آقشهر فتلقاهم سلطان احمد بن قلج ارسلان - صاحب تلى صار - وقد رغب في الطاعة السلطانية ، وسار معهم حتى نازلوا مدينة آقشهر في أول ذى الحجة فهرب فتملكها حسن الايتاقى إلي قلعة برداش فملك العسكر المدينة وقلعتها ثم اضافوا غيرها ، وتوجهوا إلي ارزنكان فقدم إليهم رسول صاحبها يعقوب بن قرايلوك - ابنه مرزا ومعه عدد من القضاة والاعيان وزوجة ابيه - يطلبون منه العفو على يعقوب قرايلوك ، واجيبوا إلي ذلك كله ، وخلع على مرزا ، ودفع إليه خلعة لأبيه يعقوب ، وفرس بقماش ذهب ، أعيد وصحته جهان كير وقد خلع عليه بناية ارزنكان التي تسلمها سودون النوروزى دوادار نائب حلب دون مانع وقد قضوا بتلك المناطق مدة يقرون الامور حتى اخر ذى الحجة ٨٤١ هـ - ٣ .

١- وكان بصحته شمس الدين القطماوى الذي حمل كتب الأمراء المجردين إلي حلب . وقد اكرم الرسولان .

٢- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٥٦ . وسوف نشر في سفره بعد قليل .

٣- السلوك ج ٤ ق ٣ ص ١٠٥٩

وفي خامس عشر المحرم سنة ٨٤٢ هـ اعيد مراد قاصم الامير حمزة بن قرايلوك ورسم بسفره وصحبته شمس الدين القلمطأوى احد موقعى حلب ، وجهاز السلطان صحبتها مبارك شاه البريدى ، وعلى يده جواب كتاب الامير حمزة بشكره والثناء عليه ، وتشريف له بنيابة السلطنة بمالكة ، ، وفرس بقماش ذهب ، وهدية هائلة ما بين قماش سكندرى وسلاح وغيره ، ونسخة يمين ، واجيب الامراء المجردون ايضا عن كتبهم ، ورسم لهم بسرعة الحضور إلى الديار المصرية^(١) . كما ارسل بالخلع إلى نواب البلاد الشامية .

وقد وصلت ممالك نواب الشام في تاسع عشر من المحرم وعلى ايديهم المطالعات التى تتضمن افهم ملكوا مدينة ارزنكان وغيرها ، وانه خطب فيها باسم السلطان الملك الاشرف لانهم لم يعلموا بموته^(٢) ولذلك كان تعليق المقريزى على هذه التطورات بقوله:

" من العجب ان مدينة اقشهر وقلاعها ومدينة ارزنكان اخذت للسلطان الملك الاشرف برسباى ، وباسمه وهو ميت ، وسطوته ومهابته في قلوب اهل تلك البلاد مع بعدها عنه وأوامر نافذة في تلك الراعايا ، ولو علموا

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٣١ السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٦٩، نزهة

النفوس ج ٣ ص ٤٣٢

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٣٣

انه مات لما امكن العسكر السلطاني فعل شئ من ذلك ، ولكن الله يفعل ما يريد^(١) .

وهكذا هدأت الامور وعادت التجريدة إلى حلب فدمشق فالقاهرة التي وصلوها في خامس شهر ربيع الأول . وصعدوا إلى القلعة حيث الأتابك جقمق ، وأعنوا الولاء الطاعة للسلطان يوسف ثم عادوا إلى بيوتهم^(٢) . لتحدث امور ومستحدثات كما هي العادة عند توليه ابناء السلاطين .

ويبدو أن ولاء هذه المناطق ظل كما هو في عهد جقمق . فلما مات حمزة بن قرايلوك في رجب ٨٤٨ هـ تولى بعده ابن اخيه جيهان كير ابن على (اخو حسن الطويل) ولا زالوا يرتقوا حتى صاروا ملوك الشرق^(٣) . ولكن حدث سنة ٨٥٣ هـ ان أمد جقمق الأمير قاسم بالمال والسلاح وهكذا انتهى الصراع والتراع الذي كبد دولة الجراكسة في عصر برسباي الكثير ، وبخضوع القرايلوك لنفوذ سلطان مصر برسباي ومن بعده ، الذي تخلص من فسادهم وشورهم ، وماذاك الا

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٧٢

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٤٢-٢٤٥ ، نزهة النفوس ج ٣ ص ٤٣٦

٤٤٣ -

٣- بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٣ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٥٠٨

لشجاعة حزمه ويقظته كما علق المقرئى ، لأن حمزة كما يقول ابن تغرى بردى لم يكن مشكور السيرة على قاعدة أو باش انتركمان الفسقة

مصر وقراقونيلى أو الشاة السوداء :

والمعروف ان هذه القبائل قد استقرت في نواحى ارزنكان وسيواس وعظم امرها بها ، وكونوا اماره جنوب بحيرة وان ، واستقرت املاكهم في بعض بلاد ارمينية واذريجان . ويعتبر قرا محمد قورمش بن بيلام خواجه هو المؤسس لهذه الامارة سنة ٧٨٠ هـ . الذي كان على لواء دائم لمصر في عصر برقوق ، وتصدى لتيغورلنك اكثر من مرة ، وخطب لسلطان مصر على منابره ، وضرب السكة باسم برقوق ، كما وقف معه ضد تمرد يلغا ومنطاش . وقد دفع حياته ثمنا لهذا الولاء وهذه الصداقة على يد ابن ذى القادر الذي بعث برأسه إلى يلغا الناصر الشلتر بالشام^(١).

وقد تولى بعده ابنه قرا يوسف الذي استمر على الولاء لسلطان مصر وتصدى لقوات تيغورلنك اكثر مرة ، وهو يعتبر أشهر امراء هذه القبائل ، فقد انتصر على المغول ، وهو الذي اسر اطمش قريب

(١) راجع علاقات مصر الخارجية في عهد الظاهر برقوق (حلمى محمد سالم) ص ١٧ - ١٨

تيمورلنك ، ومع ذلك فقد تعرض للنفي اكثر من مرة على يد تيمورلنك ، وقد سيطر في بعض الفترات على بغداد والعراق العربي بعد احمد بن أويس ، لكن النزاع كان دائما بينه وبين خلفاء تيمورلنك من ناحية ، وقرائيلوك زعيم الشاه البيضاء من ناحية . وانه في بعض الاحيان كان يلجأ إليه الخارجون على يد المؤيد شيخ ويقبلهم^(١) .

ويبدو أن العلاقة لم تكن ولاء تاما أو عدااء صريحا ، وإنما كانت تملحها تطورات الاحداث بين المتنافسين في المناطق الشمالية، وعلى اساسها كانت العلاقة مع مصر فلما تمرد على شيخ بعض نواب البلاد الشامية وأزداد اضطراب مناطق الحدود ، خرج بنفسه سنة ٨٢٠ هـ — على راس حملة لتأديب العاصين والخارجين ، وبخاصة دغاادر ، وحينما وصل حلب ارسل إليه قرا يوسف ورسولا يدعى ذكر الله ، لعله يعلن الولاء ، فخلع عليه واعاده إلي مرسله^(٢) .

وإثناء وجود شيخ في هذه البلاد ، اشتد الخلاف بين قرا يوسف وقرائيلوك ، ووقعت بينهما حروب انتصر فيها قرا يوسف ، حتى ان أقبای نائب الشام ، واهل حلب خافوا من قوته ومن نفوذه وتطور الامور في هذه المنطقة ، وان قرايلوك قد كتب إلي السلطان المؤيد شيخ واحتّمى به ، كما ان بعض قوات قرا يوسف هاجمت قلعة ميشار — أو

١- عقد الجمان ص ٢٤٦ ط الزهراء

٢- نفسه ص ٢٩١

بيشار - فذهبوا بيوت الاكراد هناك . وعدّى منهم جماعة الفرات ، وتوجه إليهم منكلى بغا نائب ملطية ، فساروا إلى خرتبرت^(١) .

ويبدو ان قرا يوسف خاف مغبة هذه التصرفات ، فكتب إلى المؤيد شيخ بكتاب حملة القاضى حميد الدين قاضى عسكر ، يشرح فيه تطورات الموقف ، وانه ليس معاديا لسلطان مصر . واكد هذا الموقف كتاب ارسله قرايلوك إلى السلطان وهو في حلب يخبره فيه بانه اصطاح مع قرا يوسف ، وتسلم منه قرا يوسف مدينة صور ، وعوضه عنها بالف الف درهم ، ومائة فرس ، ومائة جمل ، ورحل عنه إلى تبريز ، فقرأ الكتاب على العسكر فاطمأنت نفوس اهل حلب بعد ان كانوا قد قهّلوا للرحيل إلى القاهرة فرارا من قرا يوسف ، ووصل الي شيخ كتب اخرى فاطمأن . وقرر الرحيل إلى مصر^(٢) .

الا ان الامور في هذه المنطقة لم تستقر بسبب التنافس الشديد بين الطامحين من التركمان ، ومن العجب ان يتمرد محمد بن قرا يوسف حاكم بغداد بعد ابيه الذي فكر في الزحف إليه لتأديبه ، ولكنه اشير عليه بعدم التعرض له^(٣) .

١- نفسه ص ٢٩٢ - ٢٩٤

٢- نفسه ص ٢٩٣ - ٢٩٦ .

٣- نفسه ص ٣٠١

ولم تستقر الامور لشدة الخلاف بين قرا يوسف وقرا ايلوك . وان
الأول نزل بعساكره إلي عيتتاب ، وحصل بذلك خوف عظيم وبخاصة
لأهل حلب حتى ان غالب اهلها طلّعوا إلي القلعة . ثم بعد تخريب قرا
يوسف لعيتتاب ، وحصوله على مائة الف درهم فضة عاد إلي بلادده .
ولذلك جمع السلطان القضاء والفقهاء للنظر في تصرفات قرا ايلوك .
فحكموا بكفره وبالغوا في الخط عليه ، وتم النداء بالجهاد لقتاله . لأن
خطره وصل البلاد الحلبية^(١) .

ولكن عذر قرا يوسف انه يتبع خصمه العنيد قرا ايلوك الذي
استغل انشغال قرا يوسف بخطر شاه رخ . وهجم على ماردين التابعة
لقرا يوسف وقتل من اهلها مقتله واخذ من البلاد ثمان قلاع و مدينتين .
وحول اهل اثنتين وعشرين قرية بامواهم وعيالهم لتسكينهم في بلادده .
فتوجه إليه قرا يوسف لتحرير البلاد . فهرب قرا ايلوك منهزما أمامه الي
أمد ثم قلعة نجم ، وارسل إلي نائب حلب يستأذنه في دخوله فاشتد
الخوف على اهلها ، و على اهل حماه كذلك . فلما وصلت هذه الانباء
إلي السلطان اثنى عزمه عن الحج ، وامر بالتجهز إلي الشام ، وكتب إلي
العساكر بالمسير إلي حلب . وهذا في الوقت الذي ارسل فيه قرا يوسف
إلي نائب حلب وإلي السلطان معذرا عن دخوله عيتتاب و البيرة . لأن
السبب هو عدوه اللدود قرا ايلوك . وانه على الولاء لسلطان مصر

شريطة الا يساعد عدوه. عند ذلك تحقق السلطان من الأوضاع ففتر عزمه عن السفر^(١). وهدأت الاحوال من جهة قرا يوسف . حتى انه لم يظهر ما يعكر صفو هذه العلاقات ، وان الحملة التي قادها ابراهيم بن المؤيد شيخ سنة ٨٢٢ هـ كانت موجهة أساساً لابن قرمان وغيره من العاصين .

ولما مات قرايوسف في ذى القعدة سنة ٨٣٢ هـ^(٢) خلفه ابنه اسكندر على منطقة اذربيجان وتبريز وما جاورهما ، وسيطر محمد على بغداد وملا والاها . والبصرة وواسط وغيرها بيد اصبهان الذي قتل حسين بن احمد بن أويس وقضى على دولتهم ، ولذلك كان عراق العرب والعجم بيد أولاد قرا يوسف . الذين عاصروا برسباي ، ولم تكن لهم سياسة واضحة ثابتة مع جيرانهم سواء شاه رخ أو قراييلوك أو سلطان مصر ، وكانت الظروف وتطورات المواقف هي التي تملى سياستهم ، وان كان الغالب على علاقتهم ببعضهم أولاً وبجيرانهم تقوم على القوة ، وكانت الحروب لا تنقطع فيما بينهم ، وبين جيرانهم حينما يستعين احدهم بها . لذلك خرب العراق على ايامهم واصبحت بغداد اشهر مدن الاسلام .

(١) نفسه ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٢) انباء الغمر ج ٣ ص ١٢٣ ، عقد الجمان ص ٣٩٢ ، شذرات

الذهب ج ٧ ص ١٦٣ .

لا يسكنها الا الفا من جند اصبهان بن قرا يوسف والموصل اصبحت اثرا بعد عين ، وكذلك مشهد .

والذي يعنينا ان علاقتهم بمصر خلال عصر برسبای كانت ودية في الغالب وسوف نرى ذلك بشئ من التفصيل .

وفي ربيع الأول سنة ٨٢٥ هـ جاءت رسل اسكندر بن قرا يوسف تبريز إلى مصر ومعهم هدايا للسلطان ، منها بخاتى مقدار ثلاثين راسا وصقورة غير ذلك^(١) .

كما ارسل رسولا من قبله ومعه رأسان زعم أنهمما لملك السلطانية نيابة عن شاه رخ ، ورأس نائبه بشيراز وذلك في شعبان ٨٥٢ هـ^(٢) .

وهذا يدل على علاقة اسكندر الودية مع سلطان مصر للعدو المشترك وهو شاه رخ وقرائيلوك ، واللذان استفحل خطرهما ، واتسع نفوذهما بعد موت قرا يوسف ، ولأنه لم يكن في أولاده من يساويه ولم تكن كلمتهم متحدة وبل كان كل واحد منهم يسعى لتحقيق مصلحة خاصة وان وقفوا مع برسبای في الغالب ضد اعدائه ، وان لم يظهر انه أمد احدثهم بقوة عسكرية رغم انهم كانوا كالسياج لدولته على الحدود.

(١) عقد الجمان ص ١٧٥ ط الزهراء

(٢) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦١٨

وقد تعرض اسكندر بسبب سياسته الموالية لبرسباى من ناحية
ورغبته في التوسع من ناحية لكثير من المهجوم المضاد .

ففي ذى الحجة سنة ٨٣٢ هـ كان خراب تبريز عاصمته على
يد شاه رخ وقرائيلوك وذلك لما فعله بصاحب السلطانية وإرسال راسه
إلى سلطان مصر وقد وقعت حرب عنيفة بين الطرفين قتل خلالها الكثير
من الطرفين ، وانهمز اسكندر وفر امامهم فتبعوه ثلاثة ايام دون ان
يظفروا به فتوجه إلى بلاد الاكراد وسار إلى سلماس ، وقاس الشدائد ثم
عاد إلى بلاده ، فوجد ان شاه رخ قد اجلى غالبهم إلى سمرقند ، وفرض
على اهل تبريز مالا كثيرا ^(١) .

وقد كتب إلى سلطان مصري جهادى الأولى سنة ٨٣٣ هـ يخبره
بعودته إلى البلاد ، ورغبته في التوجه إلى قتال قرائيلوك بعد انقضاء
الشتاء فلم يلتف السلطان إلى كتابه لانشغاله بموت ممالكه وغيرهم
بالطاعون ^(٢) . ولم يحرك ساكنا إزاء الاضطرابات التي وقعت في بلاد ابنه
قرا يوسف ، اسكندر الذي اصابه ما ذكرنا ، ومحمد متملك بغداد ،
والذي لا يتجاسر على مجاوزة سورها ، حتى خلا احد جانبي بغداد من

(١) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨١١ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٦٨ ط

الزهاء

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٧٢ ، كما ورد كتاب قرائيلوك في

نفس الوقت يطلب العفو عن ولده هابيل . عقد الجمان ص ٤٥٢ ط الزهاء

السكان وزال عنها رسم التمدن ورحل عنها حتى الحياك هذا في الوقت الذي نزل فيه اصبهان على الموصل ، ونهب وافسد المنطقة ، فكان عراق العرب والعجم نوب وغارات^(١) . حتى شمل الخراب من تبريز إلى بغداد مسيرة خمسة وعشرين يوما^(٢) . وفي الوقت الذي كان فيه اسكندر ومحمد ابنا قرا يوسف في اضطراب كان اخوهم اصبهان في سنة ٨٣٥ هـ يحاول القضاء على نفوذ حسين بن احمد بن أويس في البصرة وواسط وغيرها ، وقضى على أسرة ابن أويس التركية^(٣) .

وعندما خرج برسباى لحملة آمد وقاتل قرا ايلوك . وصلت الأخبار إلى مصر بقدوم اسكندر إلى السلطان للمشاركة معه في القتال ، فدقت البشائر بالقلعة ، ولم يكن الخبر على حقيقته وان ارسل إلى السلطان وهو على حصار آمد يعلن قدومه إلى السلطان فشكره على نيته واخبره بعقد صلح مع اقرا ايلوك^(٤) وفي ذى الحجة ٨٣٦ هـ تحيل اصبهان على اخذ بغداد من اخيه محمد ، ونجح في خطته ونهب بغداد واساء السيرة حتى لقد خرج الناس بعيالهم واموالهم ولم يبق بها مع

(١) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨١١ - ٨٣٧ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٨٢

ط الزهراء

(٢) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٦٤

(٣) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٧٦

(٤) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٨٩٧

اصبهان سوى الف رجل من جنده ، كما اخرب الموصل والمشهد ،
فصار الناس إلى مصر والشام بأعداد غفيرة^(١) .

ولم تلفت هذه الاعداد الغفيرة نظر المسؤولين في مصر والشام
فهى حركة عادية في ذلك الوقت ولكن الذي ادخل السرور في النفوس
هو حرب اسكندر بن اقرا يوسف مع قرأ ايلوك الذي غزا مدينة ارزن
الروم واخذها فتوجه قرا ايلوك إلى أمد ثم إلى ارقين خوفا من اسكندر ،
واستنجد بشاه رخ الذي كان قد عزم على الثأر من اسكندر الذي
استولى على شماخي من مملكة شروان التابعة له وقد توجه بالفعل إلى
تبريز واخذها ولكنه لم يخرجها هذه المرة لأن اصبهان بن قرا يوسف ممتلك
بغداد قد اعلن ولاءه لشاه رخ ودخل في طاعته^(٢) .

رغم هذه الظروف القاسية التي مر بها اسكندر في اخريكت ٨٣٨ هـ
فانه في صفر ٨٣٩ هـ قد وقعت بينه وبين قرا ايلوك معركة شديدة
انهزم فيها قرا ايلوك ، وتبعته الخيل في انهزامه ، فلما احس انه قد يدرك
القي بنفسه في خندق المدينة فغرق ومات - كما سبق وذكرنا - فدفنه
ابناؤه في مسجد هناك فتقدم اسكندر ودخل المدينة، وسأل عن قبره فدل
عليه ، فأخرج جثته وحز راسه . وارسله إلى برساي ومعه خمسة رؤوس
علقت على باب زويلة ودقت البشائر فرحا بذلك في مصر والقاهرة ،

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٣

٢- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٥٠-٩٥٥

وفرّح السلطان للتخلص من عدوه قرا ايلوك على يد صديقه اسكندر بن قرا يوسف ^(١). الا ان اسكندر لم يفرح كثيرا بانتصاره على قرا ايلوك . فقد وصل احمد جوكى والامير بابا حاجى على عسكر شاه رخ نبدة لقرا ايلوك ، وقد التقت باسكندر ووقعت بين الطرفين معركة عنيفة حيث قتل من الطرفين خلائق كثيرة عذرميا فارقين وانهمز اسكندر إلى جهة بلاد الروم وكتب يخبره إلى السلطان برسباى ، ثم استمر في مسيرته حتى نزل في افشهر ، فخدمه صاحبها ، ثم بعث في السر إلى احمد جوكى يخبره بوجوده ، ففوجئ اسكندر بالعسكر ، فهرب مع جماعة ، وغنم جوكى ما كان معه ، وقد توجه إلى توقات ولم تسنح له الفرصة بالاستقرار في دولة مراد بك بن محمد كرشجى بن عثمان ، ففر إلى البلاد الفراتية ^(٢) فلعله لجأ إلى اخيه اصبهان ، لانه ارسل إلى برسباى في ربيع الاخر ٨٣٩ هـ يخبره على يد حسن بيك قاصد بالتودد والصدقة ، وانه هو واخوه اسكندر يقاتلان شاه رخ . كما ارسل اسكندر قصاده ومعهم كتابه ، فقرئ على برسباى ، واجيب بالشكر والثناء ، وحمل إليه ماله وغيره بنحو عشرة الاف دينار ،

(١) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٣

(٢) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٥٧

ووعده بمسيرة السلطان إلى هذه البلاد^(١) .

كما أرسل إليه مرة ثانية يستأذنه في القدوم ، فوعده بخير ، ثم خلع على رسوله ومعه الرد على رسالته^(٢) .

ولم تصرح المصادر المعاصرة بفحوى الرد وإن تحدثت عما لحق باسكندر الذي تحداه شاه رخ لموقفه من سلطان مصر . فترل شاه على سلطانية وعزم على عدم الرحيل عنها حتى يبلغ غرضه من اسكندر ، فلم يلتفت السلطان إلى هذه الاخبار لانشغاله بامر جانبك الصوفي خوفاً من ان ينجده شاه بنجوده^(٣) . كما اخرجته عن تبريز وعين عليها جهان شاه بن قرا يوسف وزوجه بنساء اسكندر بحكم الشرع^(٤) . فتشتت حليف برسبای في الافاق . ثم فكر في العودة إلى عاصمته تبريز ، فترل فريفا منها ، فتصدى له اخوه جهان شاه نائب شاه رخ ، فوقعت بينهما موقعة انهزم فيها اسكندر فلجأ إلى قلعة يلنجا (النجا) من عمل تبريز ، فحاصره بها جهان شاه .

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٥٥ ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٤ ،

٢- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٧٥

٣- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦١ ط الزهراء ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص

٤- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦١ وقال ان اسكندر كان في عصمته أزيد من ثمانين

امراً

كما ان اصبهان بن قرا يوسف جمع لحرب حمزة بن قرا ايلوك الذي جمع له وحاربه وانتصر عليه فامتنع بقلعة فولاه^(١) .

هذا بجانب اخبار جانبك الصوفي ودلغادر وقرمان التي اجبرت برساي على التفكير في الخروج بنفسه لاعادة الامن والاستقرار في هذه المناطق ، ومساعدة حلفائه ، ولكنه لم يخرج بنفسه ، واكتفى بارسال تجريدة هي الاخيرة في عهده فقتل جانبك الصوفي ، وحملت رأسه إلي القاهرة وخضع حمزة بن قرا ايلوك لسلطان مصر كما ذكرنا .

فقد استفاد سلطان مصر من تأييد ابناء قرا يوسف له استفاده كبيرة ، دون أن يرد لهم الجميل ، وتركهم في الغالب لمصيرهم . لقد احتضنهم وسخرهم لتحقيق اغراضه ضد اعدائه شاه رخ وقرا ايلوك ، فهم قد خلصوه من قرا ايلوك الذي اقلقه كما حالوا دون وصول شاه رخ إلي الاملاك المصرية ، ولم يسمحوا له بذلك لعلاقتهم مع مصر ، فكانوا كالحواجز الطبيعية امام شاه رخ الذي لا يمكنه الوصول إلي سوريا الا عن طريق املاكهم ، فأعاقوا حتى أثناء الانتصار على بعضهم ، ولو كانوا اصدقاء شاه رخ لسهل عليه تحقيق طموحاته ، ولأمد جانبك بقوات اقتحمت الديار الشامية فالمصرية ، ولكن الفضل كل الفضل لاسكندر في الغالب . الذي لقي حتفه على يد ابنه شاه قوماط اثناء

اعتصامه بقلعة ينجنا (النجا) فقد ذبحه وراح الناس منه في ذى القعدة سنة ٨٤١ هـ وسلم قوماط القلعة إلى عمه جهان شاه^(١) .

والجدير بالذكر ان المؤرخين لم يثنوا عليه ولا على اخوانه ، فكانوا لا يتدينون بدين ، واشاعوا الخراب والفساد في البلاد ، فكانوا أوحش سريرة واسوأ سيرة ، وأضعف ديناً ، وأعدم مروءة واقل نخوة حتى جعلهم ابن تغرى بردى وزنادقة كفره فسقه^(٢) . بل انه عد تكرار قتال اسكندر لشاه رخ وهزيمته المتكررة لقله مروءته وافراط جهله ، وسخفه وجنونه ، وعدم اشفاقه على رعيته وبلاده حيث يقاتل من لا قبل له ولا طاقة له بدفعه ، فهذا هو الجنون بعينه^(٣) .

وعلى كل حال فقد افاد برسباى منهم افاده كبيرة وقد استمرت هذه الاستفادة بالاستقرار النسبي خلال عصر جقمق ، ولا سيما وقد كانت علاقته طيبة بشاه رخ - كما وضّحنا ذلك في مكانه - ولم يكن من بين الحكام على هذه الكيانات من يكون على شاكلة قرا يوسف واسكندر وقرا أيلوك ، ولم تظهر سوى بعض الخلافات بين التركمان سواء اصبهان أو جهان شاه و جهان كير ، فهي خلافات محدودة لم تتعد

(١) المنهل الصافي حوليات دمشق ٢ ص ٣٧٤ ، الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٨٠ ، النجوم

الزاهرة ج ١٥ ص ٢٢٠ ، عقد الجمان ص ٥٠٦ ط الزهراء ، انباء الغمر ج ٤ ص

٧٧ ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٦٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٣٤ ذرا الكتب العلمية.

(٣) نفسه ص ١٦٩

المنطقة للتأثير على حدود مصر ولذلك لم يجرّد إلى بلاد الشام إلا حملة واحدة في بداية سلطنته للقضاء على خروج بعض النواب بها^(١).

ولذلك كان يسترضى جهان شاه بن قرا يوسف صاحب تبريز بالمال ، وبخاصة بعد موت شاه رخ باعتباره أقوى حاكم تركماني ، ففي سنة ٨٥٥ هـ وصل قصاد جهان شاه ، فعمل لهم موكبا جليلا بلخوش من قلعة الجبل ، وقدموا ما معهم من هدية وعمل لهم خدمة كبيرة ، وانعم عليه بمبلغ ألفي دينار^(٢) . وكانت هدية جهان تتكون من اربعة عشر بختيا وثلاثة اقفاص اسلحة مختلفة . وقد حضر مع الوفد احد ابناء اسرة قرا يوسف ليكون ضمن ممالك السلطان . فضمه جقمق إلى حاشية ابنه الفخرى عثمان^(٣) .

علاقة مصر بتركمان دى الغادر^(٤) :

كانت اماره دى الغادر قد استتھا طائفة من التركمان في نواحي البستان ومرعش ، ثم كثرت واستفحل امرها وامتد ملكها من ديار بكر بالجزيرة الفراتية إلى شرق اسيا الصغرى ، وشمل خرتبرت وبهسنى وأمد

١- راجع السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١١١٢ وما بعدها حتى ص ١١٥٨

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٤٣٣ . وهدية قومت بخر خمسة عشر الفا دينار .

البر المسبوك ص ٣٤٥ .

٣- البر المسبوك ص ٣٤٥ .

٤- بالبدال وبالذال الغادر ، دالغادر ، ذلغادر ، ذوالقدر ، طول قدر ، و درقدر .

والرها وملطية وكخته وابلستين ومرعش وعيتتاب ودارنده . وكانوا يزعمون انتماءهم إلى كسرى انوشروان وكان أول زعمائهم قراجا بن دى الغادر^(١) ومن بعده ابنه خليل الذي عاصر بداية دولة المماليك الجراكسة ، وكان موقفه عدائيا مما اضطر برقوق إلى ارسال اكثر من حملة لنوابه في الشام لمحاربه امرائها ، واخذ من خطورتهم على الحدود الشامية ، حيث انهم رغبوا في توسيع ممتلكاتهم ولو على حساب املاك السلطة المصرية في هذه البلاد وقد استطاعت هذه القوات التابعة لمصر من القضاء على خليل سنة ٧٨٨ هـ بخديعة من إبراهيم بن يغمر التركمان^(٢) . ثم القضاء على سولى سنة ٨٠٠ هـ^(٣) فضعفت شوكة تركمان دى الغادر ، وخاصة وقد نشب الصراع بين ابناء العم (ابناء خليل وابناء سولى) على الزعامة ، فتوجه صدقه بن سولى إلى مصر واعلن الطاعة والولاء لسلطانها فولاة الامارة لكنه لما عاد وجد ناصرا الدين محمد بن خليل يدعى الامارة لنفسه وينازعه عليها ، ف وقعت بينهما المعارك العديدة التي اضعفتهم ، وانتهت بامارة محمد بن خليل .

١- اخبار الدول للقرمانى ص ٣١٩ . انظر علاقات مصر الخارجية في عهد برقوق (حلمى

سالم) ص ٧ .

٢- راجع انباء الغمر ج ١ ص ٣١٢

٣- نفسه ج ٢ ص ١٩

وظلت الامور هادئة نسبيا زمن فرج بن برقوق بسبب تهديدات
تيمور لنك لهذه البلاد ، ولانشغال فرج بالخارجين عليه وبخاصة شيخ
ونوروز .

فلما كان عهد المؤيد شيخ الحمودى بدأ خطر هذه الامارة يعود
إلى السطح من جديد مما اضطره للخروج بنفسه اكثر من مرة وارسال
ابنه ابراهيم مرة اخيرة حدث من خطورهم^(١) .

وكانت هذه الحملات تهدئة وقتية لتركمان دى الغادر وغيرهم ،
فقد عادوا إلى فسادهم واعتدائهم على اطراف الدولة المصرية في عصر
برسباى ، فكان لا بد من وقفه صارمة معهم أو محاولة كسبهم إلى تبعية
الدولة وبسط نفوذه عليهم . وأول ما نجده من اخبار عن هذه الامارة في
عهد برسباى ما ذكره العيني في حوادث ٨٢٧ هـ ففي العاشر من
رمضان قدم إلى القاهرة الامير علبك بن الامير خليل بن دلغادر ومثل
بين يدي السلطان . ثم نزل في بيت الامير جمال الدين الاستادار ، وانعم
السلطان عليه قماشاً كثيراً ، ورتب له مرتبات ، وكان قدومه من
الضرائب لأنه واخاه ناصر الدين واباهم خليل وجدّهما قراجا ،
واعمامهم وسائر قرابتهم ، دائما عصاة على السلطنة فاطاعتهم قليلة
جدا مع عدم تمثيلهم للسلطان ، ولولا انه حصلت ضرورة عظيمة لما

١ - راجع عقد اخمان ص ٢٠٢ - ٢٨١ ط الزهراء ، والمنهل الصافي ج ٧ ص

اجترأ على القدوم إلى السلطان ، وذلك ان اخاه الامير ناصر الدين صاحب ابلستين وقيسارية الروم ، وقعت بينه وبينه عدواة أدت إلى كبسه وهو في غفلة وقلة رجال ، ونهبه نهباً عظيماً بحيث انه بقى على الارض السوداء من الغينة والقهر ، لذلك تجرأ وقدم إلى خدمة السلطان فأصابه الخير الوفير ، فقد انعم عليه بالف دينار وكتب له من الشام الف دينار اخرى ، واعطى قماشاً وخيلاً وجمالاً ، وكذلك الامراء المقدمون انعموا عليه من الخيل والقماش . وما كان يليق له الا القتل ، واقل عقابه الحبس المؤبد لأنه من الفجرة المفسدين ، من الظلمة الجرمين^(١).

وهذا الحكم للعيني يوضح لنا موقف هولاء من مصر ، ويحدد مساحة التسامح الذي اظهره برسباى لم يكن حبا في علبك (على بلك) بقدر ماهو سلاح ضد ناصر الدين محمد لاستخدامه وقت الحاجة . ولذلك نرى السلطان يعينه على عينتاب ، فظل بها حتى سنة ٨٢٩ هـ — حيث قبض عليه نائب حلب الامير جار قطلو بأمر السلطان لسوء سيرته وظلمه ، ويذكر العيني انه في الرابع عشر من جمادى الأولى ، جاء الخبر بالقبض على علباك وجماعة من حاشية المفسدين . وقتل جماعة ، وسلم

(١) عقد الجمان (تحقيق القرموط) ص ٢٣٤ ط الزهراء : نزهة النفوس ج ٣ ص ٤٥

المقبوض عليهم مقيدون إلي نائب قلعة حلب . وقد فرح الناس لذلك فرحا شديدا لما كان يصدر منهم من انواع الظلم والفسق والفجور^(١).

ولذلك لم تنفعه الشفاعة حين قدم في شعبان ٨٢٩هـ جماعة من أولاد ناصر الدين بن دلغادر من حاشيته ومعهم امرأة مسنة ذات مكانة متميزة للشفاعة في عليك ومعهم الهدايا فلم يقبل السلطان شقاعتهم لجرمه . وآخذه الله اخذ عزيز مقتدر ، فقد امر السلطان نائب حلب جار قتلوه بقتله ففعل^(٢) . وراح الله البلاد والعباد منه.

ومما ذكره العيني ضمن الوفود التي قدمت على برسباي سنة ٨٣٢هـ كان قاصد من عند الأمير عليك بن دلغادر ومعه عند ام حمزة^(٣) . وهذا يدل على ولاء حمزة لسلطان مصر ، أو ان برسباي قد عينه على بعض الامارات (مرعش) لاستخدامه ضد عمه محمد عند الضرورة ، فوثب عليه فياض بن عمه ناصر الدين فأخرجه منها ، واستقر بها بغير توليه من السلطان ولا بأذنه ولا بمرسوم ، فما كان من السلطان الا ان امر نائب حلب قرقماس بالتوجه إلي هناك بقواته ومساعدته

(١) عقد الجمان ص ٢٩٨ ط الزهراء ، نزهة النفوس ج ٣ ص ١٠٢

(٢) نفسها

(٣) عقد الجمان ص ٣٧٤ ط الزهراء

تركمان انطاعة ، فتوجه إلي مرعش حيث قبض على قياض^(١) ، وارسله إلي القاهرة، واعاد حمزة إلي النيابة في مرعش وقد سجن قياض في القلعة . فشق على ابيه هذه التطورات . فجهز زوجته خديجة خاتون والدة قياض و معها هدايا قيمة ومفاتيح قيصرية لتشفع عند السلطان في ولدهما قياض ، فوصلت حلب في رمضان ، ووصلت القاهرة أواخر شوال منها فقدمت الهدية فقبلت ، وافرج عن ولدها بشفاعتها واعطى نيابة مرعش واستقر أبوه على حالة في قيصريه كما طلب وطلبت^(٢) ، ولكن تطورت الامور بسرعة بعد ظهور جانبك الصوفي فتدخلت الاحداث ، وتغيرت المواقف حسب المصالح وهذا يدعونا لتوضيح هذه الفقرة وارتباطها بتركمان دلغادر وغيرها .

ظهور جانبك الصوفي وتطورات الاحداث :

المعروف أن جانبك الصوفي قد هرب من سجنه في الإسكندرية بحيلة عجيبة وتمكن من الوصول إلي القاهرة حيث أختفى بها عدة سنوات ، كبست فيها بعض احيائها اكثر من مرة ، فلما واثته الفرصة تنكر وتخفي حتى وصل البلاد الشامية لعدم امكانه الظهور في مصر ربما

(١) كان القبض عليه في ربيع الآخر ٨٣٨ هـ . انباء الغمر ج ٣ ص الغمر ج ٣ ص ٥٣٨

(٢) انباء الغمر ج ٣ ص ٥٤٣ ، وقد ذكر ابن ابراهيم بن قرمان قد أرسل السلطان بشأن

قيصرية التي كانت تابعة لهم من قبل استيلاء ناصر الدين عليها - على ان يدفع للسلطان عشرة الاف دينار كل سنة وغير ذلك ، فوفق السلطان ولكن وصول خديجة خاتون غير ذلك

لقله المناصرين ، ويقظة برسباى ثم توجه إلى بلاد الروم حيث اقام عند اسفنديار صاحب قسطنطين الواقعة في شمال اسيا الصغرى حتى اعلن ظهوره في شوال سنة ٨٣١ هـ بتوقات حيث ساعده اميرها اركج باشا^(١) .

وقد اتبع جانبك خطوات سليمة وواقعية ، فقد كاتب إلى الامراء التركمان وغيرهم يطلب منهم الوقوف معه ضد برسباى ، فكتب إلى شاه رخ وإلى قرايلوك وإلى ناصر الدين بن محمد بن دلغادر بجانب الامراء التركمان الاخرين .

كما كتب إلى نواب السلطان بالقلاع والمدن الشمالية في سوريا فكتب إلى نائب حلب ونائب درندة .

وقد ايده شاه رخ وقرايلوك وناصر الدين بن دلغادر وغيرهم . اما نواب السلطان فقد قبضوا على رسل جانبك وارسلوا بالكتب إلى السلطان في مصر قتنكد للغاية حيث نزل عليه نزول الصاعقة ، وأوجس في نفسه خيفة ، وكان رد فعله عزل بعض النواب الذين يخشى من انصمامهم إلى جانبك فعزل نائب حلب قرقماس العللى و نائب طرسوس قانصوه النوروزى .

(١) وانظر النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٤٦ دار الكتب العلمية .

وفي نفس الوقت كان التأييد لجانبك الصوفي يتزايد ، فقد انضم إليه صديقه القديم قرمش الاعور^(١) . وانضم إليه جماعة كبيرة من التركمان منهم اسلماس بن كبك ومحمد بن قطبكي واخذ نجمه في الظهور .

في ذلك الوقت خرج حمزة بن دلغادر على طاعة السلطان ، وتوجه إلي ابن عمه سليمان بن ناصر الدين محمد بن دلغادر بعد ان استوثق منه ، وحلفه . ولكن سليمان في نفس الوقت لم يستطع المحافظة على قيصرية التي حاصرها ابراهيم بن قرمان ، ووافقه اهلها على التسليم له ، ففر سليمان إلي ابيه في أبلستين . التي وصلها دوادار جانبك الصوفي ومحمد بن كندغدى بن رمضان التركماني يطلبان منه مساعدته جانبك وعدم تسليمه إلي اى احد إذا قدم عليه ولا ويخذه ، وحلفاه على ذلك . إلا انه لم يظهر هذا الموقف لانه لم يعلم بما حدث لزوجته وابنه خديجة خاتون وولده فياض في مصر . لذلك جرى السلطان وداراه ، واظهر حرب انصار جانبك حتى تصل الاخبار إلي السلطان فيسرع في تحقيقه الهدف من ارساله زوجته .

(١) قبض برسبای علی قرمش الاعور بعد هروب جانبك الصوفي ، ثم اطلق سراحه ، فاشترك سنة ٨٢٧ مع تنبك البجاس نائب الشام ضد السلطان . فلما قضى سودون بن عبد الرحمن على تنبك هرب قرمش واختفي حتى ظهر جانبك فانضم إلي ه . عقد الجمان ص ٢٢٠ ط الزهراء

ولذلك ارسل ناصر الدين ابنه سليمان بقواته لمحاربة جانبك ومن معه اثناء حصارهم ملطية على الحدود ، واستطاع سليمان التغير بجانبك وظهر له النصيح والاخلاص حتى اطمأن إليه ، ثم دبر امر اختطافه وذهب إلي ابلستين^(١). وكتب يعلم السلطان بهذا ، ويطلب من يأتيه من قبل السلطان لتسلمه فوصل كتابه في ربيع الأول ٨٣٩ هـ^(٢). ولذلك اختار السلطان شاذى بك احد رؤوس النواب ، للقيام بهذه المهمة، وجهاز معه مالا وخيلا لناصر الدين محمد وابنه سليمان . ولكن للأسف عندما وصل شاذى إلي ابلستين اخذ ناصر الدين الهدية ولم يسلمه جانبك فقد اطلق سراحه^(٣) ، حيث اطمأن لوصول زوجته وابنه فأدرك حريته في التصرف الذي يناسب دواخله ، فاعلن انضمامه صراحة إلي جانب جانبك الصوفي ضد السلطان برسباى ، حتى انه زوجه احدى بناته لتقوى الصلة بينهما نكاحية في سلطان مصر ، وقد زعم انه اطلقه حتى لا يعاير به ، وخاف من مخالفه شاه رخ وغيره من ملوك الاقطار الذين كتبوا إليه للتوصية بجانبك الصوفي^(٤).

(١) راجع تفاصيل الاحداث في النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٥١ ،

السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٤٦ - ٩٦٠ .

(٢) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٠ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٥١

(٣) السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٤ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٥٨

(٤) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٥٨

لقد شق على السلطان هذا الموقف ، وقلق الناس لذلك ، فعزم السلطان على السفر إلى هذه البلاد ، وجمع الأمراء وحلفهم على طاعته ، وعين سبعة أمراء للسفر والفا من الممالك السلطانية والفا من اجناد الحلقة ، فاخذوا في الاستعداد^(١) كما كتب إلى أمراء الشام باخذ الابهة والاستعداد لنجدة نائب حلب الجديد عند الضرورة ، وتجهيز الاقامات للسفر .

وفي تلك الاثناء ورد عليه كتاب اسكندر بن قرا يوسف الذي خلصه من خصمه العنيد قرا ايلوك ، وكان يستأذن في القدوم كما سبق وذكرنا فوعده بخير كما قدم الامير اسلماس بن كبك التركمانى مفارقا لجانبك الصوفي قادما على السلطان فآكرمه وانعم عليه وخلع عليه خلعة السفر فيما بعد ، ورسم بتجهيزه^(٢) .

ولما استكملت الحملة استعدادها ، تحرك افرادها في الخامس والعشرين من شهر شعبان ٨٣٩هـ يقودهم جقمق اتابك العساكر ، وبصحبه ستة من أمراء الألو^(٣) .

وكان هدف هذه الحملة اقرار الامور في هذه المناطق التركمانية المضطربة ، وتأمين حدود الدولة المجاورة لها ، والتخلص من جانبك

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٧٠

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٥٩

٣- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٧٠

الصوفي وخطره ، ويجب لفت النظر إلى ان الصراعات العديدة والقوية بين الكيانات السياسية على اطراف سلطنة مصر كالحروب بين شاه رخ وغيره ، وبين قرايلوك وابناء قرايوسف ، وجعل بعض انصار جانبك ينشغلون عنه بل ويصل بعضهم إلى سلطان في مصر . ولم يبق له معلضد قوى وعنيد سوى تركمان دى الغادر ، ولذلك كان التصدى لهم بعنف وقوة وهذا ما سنوضحه هنا ان شاء الله .

١ . سار الامير تغرى برمش نائب حلب بعساكره وصحبه الامير قانى باى الحمزاوى نائب حماه بعساكرها ، ونزلوا على عينتاب ، وفي نفس الوقت الذي نزل فيه جانبك الصوفي على مرعش فتوجهوا إليه عن طريق الدربند - طريق بين جبلين - حيث نزلوا على بزرحق (سويقة) ثم عدوا الجسر وقصدوا ناصر الدين بك ابن دلغادر نائب ابلستين من طريق دربند كينوك فصعب عليهم سلوكه لكثرة الثلوج ، فمضوا إلى دربند بهسنا للوصول إلى ابلستين التي لم يجدوا فيها ناصر الدين بن دلغادر ، فأمر تغرى برمش بنهنيها واحراقها فتم ذلك وعادوا بكثير من المغنم ، وتركوها قاعا صفصفا ، وعادوا إلى حلب بعد خمسين يوما من تركها^(١) .

٢. وصلت الحملة من مصر إلي حلب ، فبلغها جميع ناصر الدين بن دلغادر لقواته قرب كينوك ، فتوجه إليها خجا سودون ، وارسل إليه تغرى برمش حسام الدين حسن بن حاجب الحجاب بحلب تقوية له . وقد التقت هذه الجماعة بجانبك الصوفي وقرمش الاعور وكمشبعامير عشرة وأولاد دلغادر - ماعدا سليمان - وكان هدفهم لقاء خجا سودون ، وقد نزلوا على مرج دلوک، ثم منها إلي عینتاب ، فتقابل الطرفان اخر النهار ، فاستعدوا ، ثم نشب القتال في الصباح وكانت القوات المصرية مقسمة إلي قسمين مع كل امير جماعة من الترك وترکمان الطاعة وتصدت بعنف لجانبك ومن معه ، واسفر الموقف عن اخذ قرمش وكمشبعا وثمانية عشر فارسا ، فانهزم جانبك ومن معه وتبعهم العسكر ثم عادوا إلي حلب بالاسرى فسجنوا بها ، وكتبوا للسلطان بخبرها^(١) . ثم وسطوا وارسل برأس قرمش وكمشبعا إلي القاهرة ثم القيتا في سرداب مملوء بالأقذار^(٢) . ودقت البشائر لذلك اياما ، وفرح السلطان والناس وارسل إلي حاجب حجاب حلب وخجا سودون بالشكر والثناء .

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٨١

٢- نفسه ص ٩٩٥ ، المنهل الصافي ج ٤ ص ٢٢٧

٣. توجه العسكر المجرد إلى حلب نحو ابلستين وساروا حتى وصلوا إلى مدينة سيواس ، فوجدوا ان ناصر الدين وجانبك قد هربوا وتوجهوا إلى بلاد الروم فخربت القوات سيواس ، وعادت منها بغنائم كثيرة إلى حلب^(١) . وبعد ان مكثت بها عشرة ايام في التخريب والتدمير والاحراق ، في الوقت الذي استمر فيه هروب جانبك ومن معه حتى وصلوا جبل اق طاغ - معناه الجبل الابيض - ثم مضوا منه إلى انكورية . ومنذ هذا الهروب اخذ امر جانبك الصوفي في ادبار ، لانه كان خاملا قليل السعد ، لا يتحرك إلا وانعكست عليه الامور ، مع ما اجتمع إليه من ملوك وخلائق في هذه المرة^(٢) .

ولما ادت هذه الحملة مهمتها وفر جانبك ومن يساعده من دى لغادر، وجد السلطان عدم جدوى بقائها بهذه المناطق ، فكتب إلى الامير الكبير جقمق بالعودة إلى الديار المصرية ، وقد انعم عليه بالف دينار ، وعلى كل مقدم الف خمسمائة دينار ، فقدمت الحملة القاهرة في السابع عشر

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٩٦

٢- المنهل الصافي ج ٤ ص ٢٢٩ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦٣

من جمادى الأولى سنة ٨٤٠ هـ و طلعوا القلعة وقبلوا الارض وخلع
السلطان عليهم الخلع السنية ، واركبهم خيولا بقماش ذهب^(١) .

عودة الاضطراب ونهاية المطاردة :

ومع ان الحملة عادت بعد ان حققت هدفها . الا ان امور هذه
المنطقة لم تستقر ، فقد هاجم ناصر الدين بن دلغادر بلاد ابراهيم ابن
قرمان ، واحتل قلعة اقشهر و قلاعا اخرى .
كما اشيع ان مراد بن محمد بن بايزيد العثماني - الذي ارسل منذ قليل
الهدية الي برسباي - فكر في توجيه يد العون والمساندة لابن دلغادر
وجانبك الصوفي ، نكاية في ابن قرمان . فلما وصلت هذه الانباء الي
السلطان عقد مشورة في العاشر من رمضان سنة ٨٤٠ بهذا الخصوص ،
ووقع الاتفاق على ضرورة سفر السلطان الي تلك المناطق لاعادة الامن
والاستقرار ، وكتب كذلك الي امراء الشام بالتحرك لمساندة ابن قرمان
. واخذ امراء مصر في الاستعداد للسفر^(٢) .

١- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦٣ ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٠٢ ، انباء

الغمر ج ٣ ص ٤٣ ، عقد الجمان ص ٤٨٥ ط الزهراء

٢- انباء الغمر ج ٣ ص ٤٤-٥٢ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦٥ ، نزهة

النفوس ج ٣ ص ٣٨٣ .

وفي هذا الوقت كان الخلاف قد اشتد بين مراد بك بن محمد العثماني وبين ابن قرمان ، حتى اضطر نائب حلب إلى الخروج لمساندة ابن قرمان حسب أوامر السلطان ، ولكن الأمور عرضت على محك التصالح الذي تم بين الطرفين ، فاستقرت الأحوال ، وعاد نائب حلب ، واطمأن السلطان إلى عدم تقديم ابن عثمان مساعدة لعدويه جانبك وناصر الدين وانقضى عام ٨٤٠ هـ على هذا الحال^(١)

وفي خامس عشر المحرم سنة ٨٤١ هـ توجه نائب دوركي المملوكي ومعه عدة نواب من تلك الجهات على رأس ألفى مقاتل (فارس) فطرقوا بيوت الأمير ناصر الدين بن محمد بن دلغادر وجانبك الصوفي على مقربة من مرعش ، فنهبوا واحرقوا ، فأضطروا إلى الهروب في نفر قليل ، لأن جموع عساكرهما كانت مع سليمان بن ناصر الدين على حصار قيصرية الروم^(٢) . فاضطر ناصر الدين بن دلغادر بعد هذه المعاناة مع صهره دون طائل إلى التخلي عنه ، فكفاه خرابا وتدميرا لبلاده ، وكفاه حروبا ومعارك خاسرة ، فتوجه جانبك الصوفي إلى أولاد قرايلوك بديار بكر (محمد ومحمود) عله يجد عندهما العون والمساعدة بعد تخلي ابن دلغادر

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٢٠٠٣ - ٤ ، ١٠٠٩ - ١٠١٠ .

٢- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠١٨ - ١٠١٩ ، نزهة النفوس ج ٣ ص ٣٩٢ ، وقد

توجه اينال الحكيم نائب الشام إلى حلب وكذلك غيره من النواب لقصد مناصرة ابن قرمان ضد سليمان بن دلغادر المحاصر لقيصرية ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦٦

عن مناصرته وقد اكرماه وانزلاه عندهما ، ولكن تغرى برمش نائب حلب اخذ يتحايل عليهما ، ويدبر لهما حتى استمالهما ، ووعدهما بمال جزيل مقابل التخلي عن مناصرة جانبك الصوفي وتسليمه فمالا إلى الخمسة الالف دينار ، وفكرا في التحايل على جانبك لتسليمه ، فلما بلغه الخبر أو احس بما يبيت له حاول الهرب بعد استشاره من معه ، وبالفعل تحرك في عشرين فارسا يطلبون النجاة فعلم القرايلوك بذلك فتبعوهم حتى ادركوهم وقتلوهم ، فاصاب جانبك سهم وسقط منه عن فرسه ، فاخذوه وسجنوه فمات من الغد ، فقطعت راسه ، وحمل إلي نائب حلب فسلطان مصر فطار من الفرح^(١) . كما سبق ان ذكرت .

وقد قيل في موت جانبك انه اصيب بالطاعون ومات فقطعوا راسه وارسلوها إلى القاهرة فطيف بها ثم القيت في مجارى الميلى . والأول هو المتداول بين الناس على حد قول ابن تغرى بردى في النجوم ، والثاني هو الاقرب في رايه ايضا وهو المتداول بين الناس^(٢) . فايهما تصدق؟ وكيف يقع ابن تغرى بردى في هذا التناقض في كتابه ؟

وعلى كل حال بمقتل جانبك الصوفي ، وهروب ناصر الدين ابن دلفادر إلى الروم شريدا وفشل قوات سليمان بن ناصر الدين في اقتحام

١- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٢٤ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦٩ ، عقد

الجمان ص ٤٩٥ ط الزهراء ، نزهة النفوس ج ٣ ص ٣٩٧ .

٢- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦٩ ط الزهراء ، المنهل الصافي ج ٤ ص ٢٢٩

قيصرية ، تخلص السلطان من الد أعدائه ومنافسيه^(١) . وعاد الاستقرار إلى تلك المناطق نسيبا من جديد .

وللأسف يشتم من عبارات المقریزی التشفي في برسباى لأنه بعده عن وظائف الدولة ، وكان ينبغي له ذلك . وكان مما قاله :
 "... وطن انه قد امن ، فأجرى الله على الألسنة انه قد انقضت ايامه ، وزالت دولته ، فكان كذلك ... وقد قابل نعمة الله في كفاية عدوه بان تزايد عتوه ، وكثر ظلمه ، وساءت سيرته فأخذ الله اخذ وببلا ، وعاجله بنقمته ولم يهنيه^(٢) "

ولم يعجب ابن تغرى بردى هذا الاتهام . وهذا الوصف بالظلم واساءة السيرة فقال : " وما عسى الملك الاشرف كان يظلم في تلك المدة القصيرة ؟ فان خبر جانبك الصوفي ورد عليه في سابع عشر جمادى الأولى ، وابتدأ بالسلطان مرض موته من أوائل شعبان . ولزم الفراش من اليوم المذكور ... غير ان الشيخ تقى الدين المقریزی رحمة الله كان له انحرافات معروفة عنه . وهو معذور في ذلك ... لأنه كان مبعودا في الدولة لا يدينه السلطان مع حسن محاضرتة ، وحلو منادمتة^(٣) .. "

١- سبق وان ذكرنا اثناء العرقة مه قرا ايلوك تجريد السلطان حملة فيها ثمانية من مقدمى الالوف وحقت الكثير من المكاسب حتى بعد موت برسباى الذي تعلم به ، راجع النجوم

الزاهرة ج ١٤ ص ٢٧٠

٢- السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٢٤

٣- النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٧٠

ولما تسلطن جقمق وعلى وجه التحديد في الخامس والعشرين من شوال سنة ٨٤٣ قدم عليه الامير ناصر الدين محمد ابن دلغادر نائب ابلستين ، وقد احتفي به السلطان حفاوة كبيرة ، فقد جهزت له الاقامات في طول طريقه ، وتلقاه عدة من اعيان الدولة ومعهم الخيول والخلع له ولكبار اعوانه من اولاده وغيرهم ، فلما وصل القاهرة . ودخل القلعة وتمثل بين يدي السلطان قبل الارض ، وخلع عليه استمراره على نيابته على عادته وانزله في بيت قريب من القلعة ، وبالغ السلطان في الاحتفال بامره ، والاعتناء به وشمله بالانعامات الكثيرة ، ولم تعجب المؤرخين المعاصرين^(١) هذه المبالغة في استقباله والعطايا له ، حتى ان الامراء الكبار والصغار بما فيهم الامير الكبير قد خرجوا لاستقباله وحتى عقد له مجلس عام في ايوان القصر لأنه من سنين لم يدخل في طاعة سلطان مصر ، وكان على عداء سافر مع الدولة ، ولذلك لما سمع بسلطنه جقمق وبحسن سيرته قدم عليه ، ليتخلص من المعاناة والتشرد والهروب المتكرر الذي لحقه نتيجة وقفته مع جانبك الصوفي وقبله .

وقد قدمت معه ابنته الخاتون زوجة جانبك الصوفي التي مات عنها ، ولها منه بنت في الثالثة من عمرها ، وقد تزوجها وحمل إليها مهراً قيمته

١- عقد الجمان ص ٥٥١ ط الزهراء ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٣٣٨ ،

السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١١٨٥ ، انباء الغمر ج ٢ ص ١٤٥ .

الف دينار ، وعدة كثيرة من الشفق والحرير وغيرها^(١). وذلك لترضية ، ولضمان ولاء ابن دلغادر المتمرد من سنين.

وقد خلع على ابن دلغادر خلعة السفر وسافر في ثلثي عشرين ذى القعدة ، بعد ان بلغت النفقة عليه ثلاثين الف دينار . وقد انعم عليه بأشياء من الذهب والقماش والحرير والسمور والخيول المسومة والسروج المفرقة . ومثل هذا ما كان ينبغي ان يفعل به وله ، فهو مشرد ولم يجد موضعاً يستقر فيه ولكنها السياسة التي تتغير و تتبدل حسب المصالح والاهواء . وان ضمنت الولاء والاستقرار والخضوع في هذه المنطقة لسلطان مصر جقمق .

وقد عادت الامور إلى العداء بعد عهد اينال ومنذ سنة ٨٥٨ بعد موت سليمان بن ناصر الدين محمد حيث تدخل محمد الفاتح في شئونها ومساعدته شاه سوار في تولي امارة دلغادر سنة ٨٧١ هـ ، فاعادت الاضطرابات والمنازعات من جديد وتكررت اعتداءات شاه سوار على اطراف الحدود المصرية . فاضطر قايتباي للتعامل بحسم لضمان الاستقرار في هذه المناطق وجرد ثلاث حملات لهذا الغرض^(٢) .

(١) انباء القمر ج ٣ ص ١٤٦ ، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٣٣٨ ، السلوك ج

٤ ق ٢ ص ١١٨٧ ، عقد الجمان ص ٥٥١ ط الزهراء

(٢) راجع العلاقات المصرية العثمانية (د / عبد الرازق القرموط) ص ٦٥ وما بعدها ، ٧٤

وما بعدها . مصر في عصر الجراكسة (طرخان) ص ١٢٥ - ١٣٥ .

علاقة امارة بنى رمضان بمصر :

وهذه الامارة تقع في الجنوب الشرقى لاسيا الصغرى ، وشملت املاكها منطقة سيس واطنة وبياس وشطرا من وارساق وطرسوس وغيرها ، وأول من ظهر من امرائهم الامير احمد بن رمضان الذي تولى الامارة ٧٨٠ هـ^(١) .

ولم تكن علاقة بنى رمضان بالجراكسة أو قبل عصر برسباى ودية ، بل قاموا بالغارات على اطراف الدولة ونهبها وقد جردت إلى هذه الدولة اكثر من حملة أو قوة من حلب وغيرها لتأديبها واشاعة الامن والهدوء في تلك المناطق الحدودية .

الأولى : سنة ٧٨٠ هـ وكان نائب حلب الامير قمرباى التمر داشى . وانكسر العسكر الحلبى من ابراهيم بن رمضان .

الثانية : سنة ٧٨٥ هـ ونائب حلب الامير يلغا الناصرى ، وقد كبّد القوات الحلبية وغيرها خسائر جسيمة ، وان انتصرت في النهاية بمساعدة بعض التركمان القنقية وتم قتل ابراهيم ومحمد ابنا رمضان ، وحملت رأساهما إلى القلعة حيث علقنا على الطبلخانة السلطانية^(٢) .

١- معجم الانساب لزرواباور ج ٢ ٢٣٤ ، اخبار الدول للقرماني ص ٢٢٠

٢- راجع عقد الجمان العيني مخطوط ج ٢٤ ل ٢٩١ رقم ١٥٨٤ تاريخ ، السلوك ج ٤

ق ٢ ص ٥٠٨ ، المنهل ج ١ ص ٢٨٠

وقد دام احمد بن رمضان على العصيان مدة سنين إلى أن دخل تحت طاعة الناصر فرج بن برقوق ، وقدم إلى الديار المصرية سنة ٨١٣ هـ وتزوج السلطان الملك ناصر بابنته .. واقام ابن رمضان بالقاهرة مدة يسيرة وخلع عليه بالأمرة ، وتوجه إلى بلاده. واقام به إلى ان توفي سنة ٨١٩ هـ^(١) .

وكان من اثر هذه العلاقة الودية انه حاصر طرسوس مدة سبعة اشهر حتى اخذها عنوة في محرم سنة ٨١٨ هـ ، وخطب فيها للسلطان المؤيد شيخ ، واعلم نائب حلب بذلك^(٢) ولما خرج السلطان المؤيد شيخ بحملته سنة ٨٢٠ هـ لتأديب الامراء التركمان الخارجين على الطاعة وبخاصة امارة دلغادر . وقد عليه ابراهيم بن رمضان وابن عمه واكثر التركمان الأوجقية ، وقدمت معهم ام ابراهيم بن رمضان وأولاده الصغار ، فاکرمهم السلطان ، وخلع عليهم وانفق فيهم^(٣) .

ولكن احداث ٨٢١ هـ تشير إلى انضمام ابراهيم بن رمضان إلى بن قرمان وقد هجما على طرسوس فارسل النائب شاهين إيدكارى

١- المنهل الصافي ج ١ ص ٢٨١ الذي يذكر علاقة ابن رمضان بوالده الامير تغرى بردى نائب حلب . وانه فر إليه اثناء خلافه مع فرج ومكث عنده سنة اكرمه فيها ابن رمضان اكراما زائدا . واجرى عليه الرواتب العالية وقدم له التقادم السنية ، حتى وصل كتاب الامان من الناصر فرج . وربما كان لتغرى بردى دوره في تحسين العلاقة بين الطرفين

٢- عقد الجمان ص ٢٤٨

٣- عقد الجمان ص ٢٨٨

يطلب النجدة من السلطان فارسلى إلى ولده حمزة بالاستقرار فى نيابة
اذنه عوضا عن ابيه . ولذلك قدمت ام ابراهيم ابن رمضان إلى السلطان
فى ذى الحجة ٨٢١ هـ تستعطف السلطان على ولدها ، فامر باعتقالها
. فاعتقلت^(١) . وامر بتجهيز حملة ابنه ابراهيم إلى بلاد ابن قرمان
وابراهيم بن رمضان لفسادهم فى البلاد ، وقد ادت الحملة مهمتها^(٢) .
وفى عهد برسباى لم يظهر ولائهم الدائم ففي ٨٢٨ هـ توجهت
عساكر حلب لقتال ابن رمضان لقتاله تركمان ازر الموالية للسلطان .
وقد أمد السلطان عساكر حلب بعساكر الشام^(٣) .

وقد هرب الامير ابراهيم بن رمضان ، والتجأ إلى ابراهيم ابن
قرمان الذى ارسل إليه السلطان الامير شادى بك امير عشرة ورأس نوبة
صغير ليصلح بين ابناء قرمان (ابراهيم و عيسى) ويسلمه ابن رمضان
وبعد ان ادى مهمته سلمه ابراهيم بن قرمان ابراهيم بن رمضان الذى
قدم به إلى القاهرة فى اسوأ حال من قيد ، وفى ٢٧ من ذى القعدة سنة
٨٣٠ هـ حيث احتاط عليه ومعه حريمه وعياله . واعتقل فى برج من
ابراج القلعة^(٤) وفى محرم ٨٣١ هـ قدم الأمير محمد من أولاد رمضان ،

(١) راجع عقد الجمال ص ٣٣٠ - ٣٣٣ ط الزهراء

(٢) نفسه ص ٣٤٦ - ٣٤٨ .

(٣) عقد الجمال ص ٢٥٨ ط الزهراء ، نزهة النفوس ج ٣ ص ٧٥

(٤) نفسه ص ٣١٧ - ٣٢٧ ، السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٧٥١ ، نزهة النفوس ج ٣ ص

ومعه جماعة من حاشيته وادعى على إبراهيم الحبوس انه قتل عميه وفلاننا
وفلاننا من اخواته وأولادهم ، فأقام جماعة شهدوا بمضمون ما ادعى به ،
فلم يقبل الشرع شهادتهم لما نعت شرعى عن ذلك^(١) .

وفي نهاية ليلة الخميس العشرين وقيل الحادى والعشرين من صفر
٨٣١ هـ قضى الله امره في ابراهيم المذكور ، وفي صبيحة غده سافر
محمد بن رمضان إلي بلاده التي تولاهها ، وخلع عليه بها وفي الثانى عشر
من صفر ، خلع عليه خلعة سنية ، ليمتد نفوذه على ما كان يحكمه
ابراهيم المقتول ، بالاضافة إلي مناطق اخرى من مناطق التركمان .
فاصبح مواليا لسلطان مصر حتى انه قدم إلي القاهرة في جمادى الأولى
سنة ٨٣٢ هـ .

ولكن رغم هذا لم يحافظ محمد بن رمضان على هذا الولاء ففي
العاشر من صفر سنة ٨٣٩ هـ جاء قاصد من نائب الشام واخبر أن
نائب حلب ارسله إليه يعلمه ان الامير ابراهيم بن قرمان جمع عسكرا ،
وانضم إليه تركمان ابن رمضان ، وقصدوا ناصر الدين محمد بن دغاغر ،
وانهم انتصروا عليه ، وكسروه كسره بشعة ، وقتل منهم جماعة ، وان
الامير ابراهيم توجه إلي قيسارية واخذها بقلعتها ، واستقرت بيده^(٢) .

١- عقد الجمان ص ٣٢٧ ط الزهراء ، نزهة النفوس ج ٣ ص ١٢٧

٢- عقد الجمان ص ٤٦٥ ط الزهراء للأعلام العربي .

وقد ظلت علاقة الود قائمة في عهد جقمق : فكانوا من تركمان
 الطاعة . الذين يوالون الدولة المصرية ولذلك تصدى لتغرى برمش
 (ورمش) نائب حلب حين خرج على سلطان مصر . حتى انكسر
 منهزماً عند تل السلطان . وحتى عندما التجأ إلى جماعة من التراكمين -
 التركمان - اخذوا كل ما معه ، ومسكوه ودخلوا به حلب في باشة
 وزنخير - أى قيد في رجليه ويديه وسلسلة في رقبته - وكان معه جماعة
 من مناصيره وقد فرح السلطان بهذه الأخبار^(١) .

أ . د / عبد الرازق الطنطاوى القرموط
